روافد من بلادي

قاسم حسين

اصدارات الوسط

2010

روافد من بلادي

قاسم حسين

اصدارات «الوسط»
2010

المؤلف: قاسم حسين
الناشر: شركة دار الوسط للنشر والتوزيع، المنامة، مملكة البحرين
رقم الناشر الدولي: ٣-١٠-٨٨-٩٩٩٠١-٩٧٨ ISBN
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة: د. ع ٨٠٠٥ / ٢٠١٠م
الطبعة الأولى ٢٠١٠

الفهرس

البدايات ٩

في الطريق إلى المنامة ١٣

البيت الكبير ١٣

أمطار الشتاء ١٤

نجوم الصيف ١٥

أمهات صبورات ١٦

مدرستي ١٩

مدرسٌ قدوة ٢٥

الغرفة الساحرة ٢٦

المكتبة المتنقلة ٢٧

قصة عشق ٢٨

قريتي ٣١

المعلمة بنت الملا ٣٦

براءة وبساطة ٣٨

ملاعب الصبا ٤٠

آخر عشاق عذاري ٤٢

جنة «السردوب» ٤٣

نساء من القرية ٤٥

تسلية أيام زمان ٤٩
آر تي في بحرين ٥٣
سينما ومسرح زمان ٥٤
جيلٌ عصاميٌ صعب المراس ٥٥

السفر إلى العراق ٥٩
شمعة كبيرة ٦٤
النجف الأشرف ٦٦
العودة من العراق ٦٨

النادي والغرام الرياضي ٧١
مكتبة دافئة ٧٧
صاحب الرسالة الخامسة ٧٨
رشوة ٧٩
زلزالان ٨٠

أفق جديد ٨٣
من المسجد إلى المأتم ٨٧
من النُعيم إلى الحورة ٨٩

مقدمة

تغطي هذه المذكّرات حوالي عقدين من الزمان، فتبدأ بمطلع الستينات وتتوقف عند عتبة الثمانينات. مرحلة شهدت تغيرات كبيرة، اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، وإن كانت تقتصر على تقديم خلفية لهذا التغيّر الاجتماعي الكبير، من خلال الرصد والوصف والتدوين.

الكتاب يقدم لوحات أساسية من الحياة الاجتماعية للجيل الأول في عهد الاستقلال، سيكون آخر الأجيال التي شربت الماء البارد من «الحِبّ»، والتي كانت تنام على سطوح المنازل وتغمض عينيها على منظر الشهب المتطايرة في السماء، والتي تعلّمت فن السباحة في عين «عذاري» وشاءت الأقدار أن تشهدها وهي في آخر ساعات الاحتضار.

إنها كتابةٌ أقرب إلى «التأريخ الاجتماعي» لمجتمع القرية البحرينية في زمن التحوّلات، حيث تمتزج السيرة الذاتية بسيرة المكان.

قاسم حسين

نوفمبر 2009

البدايات

عين قصاري وسط قرية «البلاد القديم» الغنية بالعيون الطبيعية

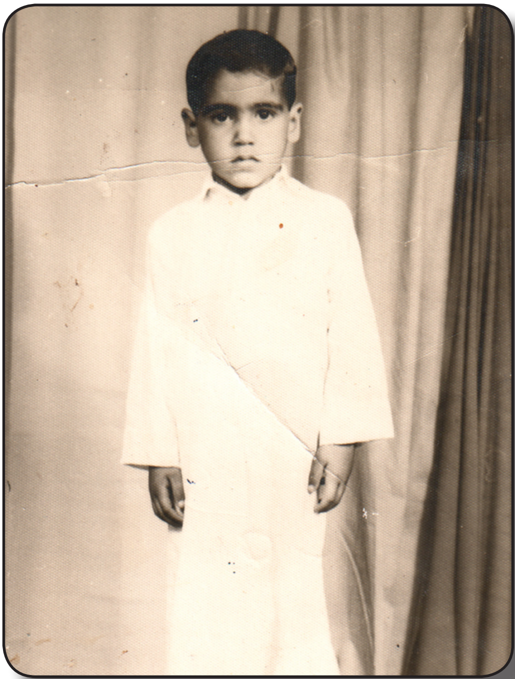

أقدم صورة في سن الرابعة (١٩٦٦)

في الطريق إلى المنامة

في أحد أيام ذلك الزمن البعيد، أمسك الأب بيد طفله الذي لم يتجاوز الرابعة، للذهاب إلى المنامة. وفي أقدم صورةٍ تختزنها الذاكرة، يتذكّر كيف قطعا الشارع إلى نهايته حتى دخلا دكاناً صغيراً، واجهته الزجاجية الخارجية وجدرانه الداخلية مغطاة بالصور الكبيرة والصغيرة، بعضهم بالغترة والعقال، وبعضهم بالبدلة و«النكتاي»!

دخلا فتكلّم الأب إلى صاحب الدكان الصغير كلاماً لم يفهم الصغير منه شيئاً، ثم أدخله إلى مكانٍ مظلم صغير، وهناك أوقفه على كرسي خشبي صغير، وطلب منه أن ينظر في الصندوق الأسود المغطى بقماش أمامه. ولم يدر لماذا إلاّ بعد أن كبر وشاهد صورةً له بثوب أبيض ونعالٍ من المطّاط، وهو ينظر أمامه في وجوم. كانت تلك أول صورة تُلتقط له في حياته، وكانت هذه أقدم صورة تختزنها ذاكرته، وقد كان هذا هو أول عهده بالمنامة، وأول عهده بالتصوير الذي أصبح عنده هواية، وأصبحت الصور من أمتع ما يمتلكه وما يحرص عليه.

البيت الكبير

فتحت عيني في صيف العام ١٩٦٢ على بيت واسع الأرجاء، مكوّن من غرفتين وفناء مسقف يوازيهما، وفضاء مفتوح على فناء واسع، وغرفتين إضافيتين من الخشب عن اليمين والشمال. يتوسط البيت بئر ماء على عمق ثلاثة أمتار، ولكنه كان يبدو لي آنذاك أعمق من ذلك بكثير. هذا «الجفر» احتفره الوالد ليوفّر على أهل بيته عناء الذهاب إلى الكوكب أو العيون أو الحقول المجاورة للاستسقاء وجلب المياه كما تفعل غالبية نساء الحي.

الجفر كان حفرة ذات قطر صغير، دائرية الشكل، محكمة البناء، إلا أن ذلك لم يمنع أن تسقط فيها الأشياء بين فترة وأخرى، وكثيراً ما كانت تسقط فيها الفراخ الصغيرة، وفي إحدى المرات سقطت فيها دجاجة، فاضطرت إحدى الفتيات إلى النزول في البئر بطريقة تثير الإعجاب، لإنقاذ الدجاجة من محنتها!

هذا البيت كانت تقطنه أسرتي الصغيرة التي التأم شملها منذ ثلاث سنوات، بالإضافة إلى عمّتي وزوجها، وجدتي وخالتي وخالي، والأخير سيختفي سريعاً عن ناظري، ولا يعود إلا بعد أن يستكمل دراسته في سورية، ليستقل ببيتٍ مع جدتي وخالتي منذ مطلع السبعينيات.

أمطار الشتاء

في الشتاء كان البرد قارصاً، وفي بعض سنوات الستينيات، كان يتساقط بعض البردي (الثلج) الصغير، وهي ظاهرةٌ ستختفي بعد سنوات قليلة، مع التغيرات المناخية وتصاعد حرارة الأرض.

كان المطر يستمر أحياناً لساعات طويلة، وتظلّ السماء تحلب أحياناً طوال الليل. وكانت الأمطار تخلّف مستنقعات كبيرة تولّد الكثير من البعوض، ولكنها توفّر ميداناً للعب الأطفال لأيام طويلة حتى تجففها الشمس. إلا ان الأمطار التي تحمل الكثير من أسباب المتعة للصغار، كانت تحمل معها الكثير من المتاعب للكبار، خصوصاً مع تسرّب المياه من سقوف المنازل. تتحوّل القصة إلى معاناة كبيرة تحمل الكثير من الهم والضيق، وتصبح المعاناة أكبر إذا تسرّب الماء من أكثر من موضع بالسقف، فكان على الأم أن توزّع الأواني والقدور حيث يتساقط الماء، وكان لتساقطه صوتٌ مزعجٌ يمنع النوم عن عيون الصغار، فضلاً عمّا يحدثه من حالة استنفارٍ للعائلة في تلك البيوت البسيطة التي لا تقوى على مواجهة زخاتٍ متواصلةٍ من المطر.

على أن أسوأ منظر شتوي شاهدته في حياتي كان في ليلة ماطرة مليئة بالرعب. كان قد حلّ علينا عمّ والدتي القادم من دبي، رجلٌ عجوزٌ مهيبٌ طويل القامة، أبيض اللحية، فكان أن اصطحبه والدي إلى المنامة لحضور أحد المجالس الحسينية. وأوقف سيارته الشاحنة أمام مأتم العجم الكبير، وذهب مع ضيفه إلى أحد الأزقة وتركني بالسيارة لوحدي، وفي تخميني الآن انه قصد مأتم بن زبر القريب.

كان الظلام دامساً، والمطر يهطل غزيراً، وأنا في كابينة السيارة سيطر عليّ خوفٌ شديد، زاده ما كان يلتمع من برقٍ بين فترة وأخرى، بالإضافة إلى انبعاث شرارات

قوية بفعل تساقط المطر على الأسلاك الكهربائية المعلقة على أحد الأعمدة بالشارع قريباً من السيارة.

على رغمٍ هذا الخوف الطارئ أو تلك المعاناة الدائمة، كان الشتاء يحمل معه جانباً جميلاً جداً لنا نحن الصغار، إذ كثيراً ما كان يرجع الوالد من عمله في الليل، وهو يحمل كيساً مليئاً بحبّات أبو فروة «الحمبصيص» الملساء اللذيذة، وكان يلذّ لنا أن نتحلّق حوله بعد أن يستقر مكانه، فيقوم بشيّ هذه الحبّات اللذيذة على الوابور الذي يعمل بالكيروسين، وبعد سنوات لاحقة كان يقوم بذلك على أطراف المدفأة الكهربائية، فتسمع تقصّفها بعد أن تنضج على اللهب الأحمر.

نجوم الصيف

في الصيف يكون النوم في «الحوش»، ذلك الفناء الواسع الكبير. وفي كل يوم كانت هناك مراسم تقليدية تجري عند ساعة الغروب، حيث يجري رشّ الفناء الترابي بالماء، لامتصاص الحرارة التي اختزنها في النهار. ثم يجري صفّ الأخشاب وترتيبها بطريقة هندسية متراكبة، ثم يجري وضع الفرش والوسائد عليها. بعد أن تفرغ الأم من هذه المهمة اليومية الشاقة بعد المغرب، يبدأ دورنا نحن بعد العشاء، فكان يستهوينا اللعب والقفز عليها.

كانت هذه الطريقة المتاحة لأغلب الناس للتغلب على حرارة الجو والرطوبة في أشهر الصيف، بعدها دخلت المروحة الأرضية التي تدور فتوزّع نسمات الهواء على النائمين. وكنا نستمتع بالاقتراب منها ولصق وجوهنا بشبكها الخارجي والصراخ فيها حتى تتضخم أصواتنا، وأحياناً تأخذنا الشقاوة إلى المغامرة بنزع الشبك ومدّ إصبعنا للإمساك بالمروحة وإيقافها.

بعد أن تهدأ العاصفة وتنتهي الشقاوة والألعاب، كم كان جميلاً أن تستلقي على ظهرك وتفتح عينيك كل ليلة على منظر السماء المرصّعة بالنجوم، حيث تراقبها وهي تتوهج من بعيد. وبين فترة وأخرى تشاهد بعض الشهب التي تمرق سريعاً في السماء، فربما تشاهد كل ليلةٍ شهاباً أو شهابين قبل أن تغرق في نومٍ عميق.

هذا المنظر الساحر سنحرم منه بعد سنوات، مع التوسع في استخدام الكهرباء، وطغيان الأضواء الاصطناعية على النور القادم من السماء. كما ستُحرم من هذا المنظر الخلاب الأجيال التالية، التي لن يقدّر لها أن تغلق عينيها كل ليلة على منظر النجوم المتلألئة، والشهب المتطايرة في قبة السماء. ربما كنا آخر الأجيال المحظوظة بتلك المتعة التي لا يعدلها شيء قبل النوم، غير حكايات الجدة التي كانت تتحفنا كل ليلة بحكاياتها الطويلة، التي تكررها كل ليلة عن «عرّوة»، والتي لا أذكر نهايتها قط، لأن النوم كان يسرع إلى جفوني قبل إكمالها!

القصص الأخرى التي كانت تلهب خيال الطفولة، لم تكن تقتصر على الحكايات الشعبية والخيالية وقصص المغامرات، وإنما كان أكثرها مأخوذاً من سيرة النبي (ص) وأهل بيته، وأكثرها يدور حول شخصيات كربلاء. واثنتان من هذه القصص ظلّت محفورة في أعماقي، الأولى عن قصة طفلَيّ مسلم اللذين نجيا من القتل في واقعة كربلاء، ولكن جرى تعقبهما واعتقالهما لاحقاً أثناء فرارهما، وقتلهما أحد الجفاة وألقى بهما في النهر. أما الثانية فقصة القاسم بن موسى الكاظم، الذي هرب من ملاحقة السلطات حتى استقر في مدينة الحلّة، حيث تزوّج وأنجب طفلة وحيدة، مات عنها وهي صغيرة فأوصى بإرجاعها إلى المدينة المنوّرة لترعاها عائلته. مثل هذا القصص الديني يبقى مؤثراً في الوجدان والسلوك والمفاهيم التي يتشربها المرء في الحياة.

أمهاتٌ صبورات

منزلنا الكبير يرتبط في مجمّع واحد مع عدّة بيوت، في جوارنا بيت تسكنه عائلة مكونة من أخوين والأبناء، وفي ظهر بيتنا عائلةٌ الأبوان في عمر أبوينا، فجاء الأبناء والبنات في أعمار متقاربة، وقامت بينهم صداقات دامت سنوات وسنوات. البيت الثالث تفصلنا عنهم مسافة من الأعمار، مع ذلك ربطنا الجوار بعلاقة متينة من الصداقة والمحبة وحسن الجوار. والبيت الأخير عاشت فيه عائلة من الكادحين الطيّبين.

في هذا المحيط، عرفنا العلاقات الاجتماعية الطيبة وحسن الجوار والبساطة والإخاء. أحياناً تحتاج إحدى الأمهات إلى علبة معجون طماطم أثناء الطبخ، فكانت تفتح النافذة وتنادي على «أم محمد» لتجلب علبة، وفي مرةٍ أخرى تطلب أم محمد رأس بصل، أو حبات بطاطس، وكان مركب الحياة يسير سيْراً هيناً لطيفاً على هذا المنوال.

في هذا المحيط، كانت كلّ ربة بيت منهن تقوم بشؤون بيتها بالكامل، وتحرص فوق ذلك على نظافته ونظافة محيطه، إذْ تحرص على كنس الشارع الترابي غير المسفلت آنذاك، فواجهة البيت من الخارج تدل على نظافة صاحبته.

هذا الجيل من الأمهات كان مكرِّساً كل حياته للمنزل والأبناء، فمحيط حياته لا يتجاوز هذه الحدود الضيقة، والاهتمامات لا تتجاوز تربية الأبناء والطبخ والغسل وتنظيف المنزل. لو كانت هناك جوائز للأمهات المثاليات المضحيات في ذلك الزمان لاحتارت لجان التحكيم في الاختيار.

حياة هذا الجيل لم تكن سهلة على الإطلاق، لكنه واجهها بالصبر وقوة التحمل والإيمان بالقدر، وربما بتسليم من لا يجد له بديلاً أفضل. كثيراتٌ منهن كان لهن مهنة من المهن البسيطة الملائمة لأوضاع ذلك الزمان، وبعضهن يسهمن في أعمال الزراعة مع أزواجهن وأبنائهن، يسقين الزرع وبعضهن يسلقن النخل لخرف الرطب. وبعضهن يجدن الخياطة وأعمال التطريز، فيوفرن جانباً من احتياجاتهن المادية، ويسهمن في تحمل تكاليف المعيشة، فالبحرينية لم تكن طارئة على سوق العمل في عقد السبعينات.

في تلك الأيام، كانت الوالدة تجلس بعد الظهر إلى ماكينتها، ونتحلق حولها لتسرد علينا قصصاً وحكايات، ونستمع معها إلى إذاعة الكويت، التي تبث تمثيليات شعبية، لعل أشهرها في تلك الفترة «بوشلاخ»، التي لا تنتهي قصصه وادعاءاته!

رغم ضيق المحيط الاجتماعي، كانت للوالدة صداقاتٌ تربطها بعدد من الجارات من أصول مختلفة، من بينها عائلةٌ يمنيةٌ كان ابنها محمد زميلناً في الدراسة الابتدائية، وكان أبوه يعمل سائقاً في مصنع للمشروبات الغازية، ويستأجر بيتاً قريباً من منزلنا. في ذلك البيت، شاهدت لأول مرةٍ مجموعةً من الأرانب، التي تعيش في أنفاق حفرتها تحت الأرض في الفناء.

مدرستي

الصف الرابع الابتدائي ويبدو الأستاذ أحمد الزنجي الأول من الصف الأخير (١٩٧١)

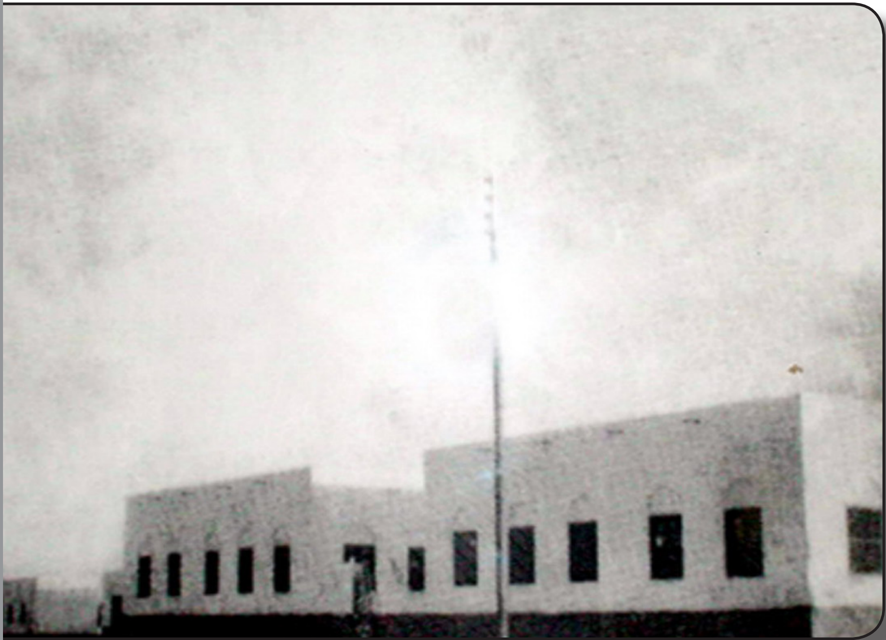

المدرسة المباركية «الخميس» ثاني أقدم مدرسة في البحرين (في الخمسينات)

مدرسة الخميس هي مدرستي الأولى، وهي ثاني مدرسة نظامية حديثة تأسّست في البحرين. دخلتها لأول مرة مع والدتي في صباح أحد الأيام، حين اصطحبتني للتسجيل فيها. كان هناك مدرِّسٌ يجلس إلى طاولة صغيرة متواضعة يقوم بتسجيل أسماء الملتحقين الجدد. ولم أكن حينها قد أكملتُ السادسةَ، لكن إصرار أمي على التسجيل، والطريقة البدائية البسيطة المتبعة آنذاك، بمد اليد من فوق الرأس إلى الأذن الأخرى، مهّدا الطريق لي فسبقت أقراني بعام واحد من الدراسة، وهو ما سيظل يرافقني دائماً، أن أكون من أصغر التلاميذ في كلّ الفصول التي التحق بها حتى الجامعة.

المدرسة كانت فضاءً مفتوحاً، فهي بلا سور، ويمكن للمارّة أن يشاهدوا الطلبة داخل فصولهم. وقد أقيمت على مساحة من الأرض كانت تنظم فيها سوقٌ أسبوعيةٌ عامرةٌ تُقام كلّ يوم خميس، ومنه استمَدت اسمها وأعطته إلى المنطقة الشمالية الغربية من البلاد القديم، عاصمة البحرين قبل أن يتم نقلها إلى المنامة على بعد كيلومترين قبل أربعة قرون.

في هذه السوق كانت تباع مختلف البضائع والغلال، فتتوزع الفرشات لبيع المحاصيل الزراعية والأسماك واللحوم والمواشي والحمير التي كانت وسيلة النقل الرئيسية قبل انتشار السيارات. وكنا صغاراً نأتي السوق للعب في غير يوم الخميس. وبعد توقف السوق كنشاط تجاري أواخر الستينات، ظلت آثاره قائمةً داخل محيط المدرسة، فكنت ترى بعض المصطبات في الجزء الشمالي من المدرسة، التي جرى تسويرها بعد سنواتٍ في الثمانينيات.

وإلى جانب تاريخ المدرسة، ظلّت مرتبطةً بالمسجد التاريخي القديم الذي يحمل الاسم نفسه، ويفصلها عنه الشارع الرئيسي. وكثيراً ما كان مدرّسو الرسم يكلفون الطلاب برسم المسجد بمئذنتيه الشامختين، ويقوم بعضهم بإخراجهم أحياناً إلى الساحة ليرسموا المنظر المهيب في الفضاء الطلق.

في مدرسة الخميس، كان هناك الكثير من مدرسينا في بدايات مشوارهم المهني، من بينهم الاستاذ حسن بهلول الذي عُرف كواحد من أشهر الخطاطين على مستوى البحرين، وعلي حفّاظ الذي عُرف كواحدٍ من كبار الفنانين التشكيليين.

ولأن المدرسة غير مسوّرة، فإنها مفتوحةٌ على الشوارع والطرقات، ففي جنوبها يوجد «الجبل»، وهو تلةٌ جيريةٌ صغيرةٌ مستطيلة الشكل بارتفاع أربعة أمتار تقريباً، وكنا نلعب ونلهو بتسلقها في بعض الأيام، وفي الدوام يأخذنا بعض مدرّسي الفن إليها لنقتطع أجزاءً صغيرة في حجم الكف أو أكبر قليلاً، لنعمل على نحتها. لكن هذه الصنعة لم تكن تلقى قبولاً لدى عوائلنا، فهذا الدرس إنما يعلّمنا كيف نصنع الأصنام!

إذا ذكرنا «نحت الأصنام»، فلابد أن نذكر في المقابل الأستاذ أحمد بن رجب، الذي علّم أغلب الطلبة الصلاة. كان رجلاً عجوزاً طويل القامة، متقدماً في السن. ولم يكن يكتفي بتعليم المقرّر في الكتاب المدرسي، وإنما أخذ على عاتقه مهمة تعليمنا الصلاة. كان يخرجنا من الصف في طابور، ويقودنا إلى مسجد ناصر الدين، الواقع في الطرف الجنوبي من المدرسة. هناك تعلّمنا أول الدروس الدينية في كيفية الوضوء وأداء الصلاة، فكان (رحمه الله) نعم المعلّم للطلاب، وكم سهّل على الأسر مهمة تعليم أطفالها الفروض الدينية الأساسية.

إلى الشمال من المدرسة، يقع مسجد الخميس، الذي كان يعرف تاريخياً بـ «المشهد ذو المنارتين»، وبسبب المناهج الدراسية، رسخ في أذهاننا أنه مبني في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (١٠١-٩٩ هـ)، لكن عندما كبرنا اكتشفنا أن هناك روايات أخرى، تثبت انه أحدث عهداً من ذلك، إذ بني في عهد الدولة العيونية، التي أسسها عبدالله العيوني (٤٦٧ – ٦٣٨ هـ)، وامتدت من العاصمة «العيون» بالاحساء، إلى القطيف وجزيرتنا «أوال»، ووصلت شمالاً إلى كاظمة بالكويت، حتى عمان جنوباً. وبنى المسجد حفيده أبو سنان محمد بن الفضل العيوني (٥١٨ هـ). وعرفنا أيضاً انه هو الذي شيّد المنارة الغربية، أما المنارة الشرقية فشيدت بعد قرنين من الزمان (تحديداً في العام ٧٢٤ هـ)، في عهد الدولة العصفورية التي خلفت حكم العيونيين.

هذا المسجد التاريخي الفريد على مستوى الخليج، كانت تقام فيه الصلوات حتى مطلع القرن العشرين. وأصبح مسجداً أثرياً، بعدما هُجر وانقطعت منه الصلوات، وأقيم حوله سورٌ جديدٌ منتصف القرن لحمايته من تدنيس البهائم التي باتت تقتحمه، فرفع الأهالي شكوى بذلك... بعد أن كان مشهداً يجتمع فيه الفقهاء ويؤمه العلماء وتقام تحت ظلاله الندوات الدينية والمناظرات العلمية. وفي الستينيات خرجنا في جماعةٍ من النساء والأطفال حتى دخلنا إلى باحته، ربما للوفاء بنذرٍ أو

بمناسبة الختان، وتم إلقاء الحلويات فوق رأسي. يومها حاولت صعود المئذنة الغربية فلم أصعد أكثر من ثلث عتباتها، ثم عدت خائفاً، بسبب الظلام ووجود القوارض والسحالي في تلك العتمة.

مدرّسٌ قدوة

كانت مباني المدرسة على قسمين، الصفوف الابتدائية جنوباً، والاعدادية شمالاً، وتفصل بينهما ساحةٌ يقام فيها طابور الصباح، وتنظم الاحتفالات في بعض المناسبات. وفي عمق القسم الأول توجد حديقةٌ صغيرةٌ معزولةٌ، وبركةٌ للسباحة، وعلى طرفيها صفوف ممتدة متوازية تقوم بينها صفوف من النخيل والأشجار.

في تلك الصفوف تلقيت تعليمي الابتدائي، ومازال يتردد في أذني بعد أربعين عاماً، صدى الترديد الجماعي للسور القرآنية القصار بإيقاعاتها الساحرة، مثل: «تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب،»، و«لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف»، و«قل أعوذ برب الناس»، و«قل أعوذ برب الفلق»... انتهاءً بـ «والعاديات ضبحاً. فالموريات قدحاً. فالمغيرات صبحاً. فأثرن به نقعاً. فوسطن به جمعاً. إن الإنسان لربّه لكنود».

في أحد تلك الصفوف، كانت تجربتي الأولى مع الحرف، تعلماً وتذوقاً وعشقاً. ومن حسن حظّي أن مدرس اللغة العربية كان خطاطاً، اسمه أحمد الزنجي، من قرية الزنج الصغيرة الواقعة عند المدخل الشرقي للبلاد القديم. كان يرسم الحروف المفردة بالطباشير الملوّنة، ومع انه كان يرسمها بخط الرقعة، وهو من أبسط الخطوط العربية وأسهلها تعلماً، إلا أنها كانت عند الطالب الطري العود، من أجمل الخطوط على الإطلاق، وظلّ ذلك الانطباع حتى بعد أن تعلّم الخط حسب أصوله بعد عشرين عاماً، واطلع على أعمال كبار الخطاطين العرب.

ولم يقتصر تأثير معلمي الأول على الانجذاب لساحرية الخط، بل أخذ بيدي إلى محاولة إتقانه وتشجيعي على إجادة الكتابة والتعبير. وكان يكلفني بتنفيذ جداول الدروس التي تُعلّق في الصف، وتحتوي على جداول الحصص الأسبوعية تحيطها

من الجانبين أسماء الطلبة. وفي صفوف لاحقة، ظلّ يكلفني بكتابة أسماء الطلبة في دفاتره الخاصة برصد العلامات في بداية كل فصل دراسي.

لم يكن أستاذي الزنجي مجرد معلّم عابرٍ في الحياة، بل كان قدوةً في دماثة الأخلاق، والتعامل الرفيع، واحترام الطلَّبة الصِغار. لم ألقه بعد مغادرتي المدرسة حتى دخولي الجامعة إلاّ مرات قليلة جداً، وبعد انتهاء فترة الغربة الطويلة داخل الوطن، كان من أوائل من سألت عنه، وكم تألّمت عندما علمت بخبر وفاته قبل سنوات من الرجوع إلى أحضان العائلة.

الغرفة الساحرة

في الشطر الثاني من المدرسة، تقع غرف الإدارة، وصفوف المرحلة الاعدادية. وفي الزاوية الشرقية من المبنى، هناك غرفةٌ سحرتني منذ اكتشفت وجودها لأول مرة. كانت غرفة طويلة تتوسطها طاولاتٌ متصلةٌ، وعلى الجدران رفوفٌ تحمل أنواعاً أخرى من الكتب غير التي كنا ندرسها. إنها لم تكن مكتبة المدرسة فحسب بل كانت بالنسبة لي قطعة من الجنة. كانت عالماً جميلاً قائماً بذاته يستهويني دخوله أوقات الفُسَحِ، حيث الهدوء والمتعة الجديدة وهذا العالم الساحر من الكتب والمجلات. وكثيراً ما كنت أنهي طعامي بسرعة لألتحق بالمكتبة قبل قرع الجرس، وأحياناً كنت أضحّي بالطعام من أجل دخول هذا الغرفة الساحرة المسحورة.

في هذه الغرفة الصغيرة، نمت في نفسي بذرة حبّ القراءة، التي ستكبر وتكبر حتى تصبح كالشجرة العملاقة، وقادتني إلى التعلق بالصحف والمجلات. وكان أول عنوان سياسي أشعل خيالي وترسّب في ذاكرتي، عنوان غلاف مجلة «المواقف» الاسبوعية: «فرنسا بعد بومبيدو إلى أين». لم أكن أعرف من يكون بومبيدو هذا بالضبط، وبقيت لعشرين عاماً لا أدري أين ذهبت فرنسا بعده! ولكن من الواضح الآن أن دخولي المكتبة يومها كان في شهر أبريل ١٩٧٤، فالرجل توفي في الثاني من ذلك الشهر وخَلَفَه فاليري جيسكار ديستان.

المكتبة المتنقلة

مقابل هذه التجربة الرائعة، كانت لي مع «المكتبة المتنقلة» تجربةٌ مرّةٌ، وهي فكرةٌ كانت تطبق في النصف الأول من السبعينيات، حيث تطوف سيارة (فان) على القرى والمناطق البعيدة أسبوعياً، وهي مزودةٌ برفوفٍ على جانبيها على هيئة مكتبة، وكانت تمثل لي حلماً أن أستعير كتاباً منها.

في أحد الأيام تشجّعت وذهبت إلى السيارة كأني ذاهبٌ إلى الجنة، إذ كانت تقف أمام باب المدرسة عصراً. وكنت طوال الطريق أحلم بعودتي ظافراً بكتاب أو قصة مصوّرة أستعيرها. كنت صغيراً جداً، ربما لم أتجاوز الفصل الرابع الابتدائي. ما حدث أن السائق أو المشرف على الاستعارة صدّني بطريقة غير لائقة، بحجة صغر سني، وربما لضآلة جسمي، بينما كانت فتاةٌ في مثل سني تحاول الاستعارة فسمح لها بصعود السيارة وترك لها الحرية لاختيار ما تريد. لا أدري كيف انسحبتُ وعدتُ أدراجي إلى البيت، لكني بقيت أشعر بفداحة ما تعرّضت له من ظلمٍ وتمييز في المعاملة.

هذا الحادث ترك في نفسي مرارةً كبيرةً، جعلني أكره الاقتراب من المكتبات العامة، وزهّدني في زيارتها رغم كل ما أقرأه عن محتوياتها الثمينة، فبتّ أشعر أنها أماكن غريبة عنّي وأخذت أحلم بأن يكون لي مكتبةٌ خاصةٌ بي. فبدأت من سنٍّ صغيرة اقتطاع بعض مصروفي اليومي الزهيد لأشتري به بعض القصص المصوّرة والحكايات الصغيرة التي تباع بمئة وخمسين فلساً في تلك الفترة.

هذه الحادثة البغيضة جعلتني أيضاً أكثر حرصاً على اقتناء الكتب، ولم أتخرج من الثانوية حتى أصبحت أملك ما لا يقل عن مئة كتاب،

وكميات كبيرةً من المجلات البحرينية والكويتية والمصرية، وخلال السنوات الأولى من الجامعة ارتفع الرقم إلى مئتين وخمسين كتاباً، أي بمعدل خمسين كتاباً أو كتيباً صغيراً في السنة. وهو عددٌ كبيرٌ بمقياس تلك الفترة بالنسبة لطالب يعتمد على ما يوفره من مصروفه اليومي، وعلى ما يمنحه أبوه إيّاه عندما يصطحبه معه إلى سوق المنامة، حيث يأوي إلى مسامرة أصحابه في قهوةٍ شعبيةٍ حتى حلول وقت المغرب.

في هذه الزيارات شبه اليومية، كان الوالد يترك لي حرية التجول في أرجاء المنامة والطواف بأزقتها الضيقة وحوانيتها، وكنت أجد متعةً بالغةً في التطواف بها، وكان يلذ لي الوقوف خصوصاً أمام واجهات المحلات التي تبيع التحف الصغيرة. ومن هناك وجدت طريقي إلى بعض مكتباتها المعروفة، كالمكتبة الوطنية والماحوزي والجيل الجديد، وفي الأخيرة كنت أقضي وقتاً أطول في تخيّر القصص المصوّرة التي تسلب لبّ الطالب الصغير. وهناك عثرت على مجلة «هنا البحرين»، الصادرة عن وزارة الإعلام، التي شجّعني رخص ثمنها (خمسون فلساً) على متابعة شرائها كل أسبوع. وبعد عامين قمت بالاشتراك فيها، بعدما وفّرت من مصروفي مبلغ دينار ومئتي فلس، لتصلني بالبريد. وهو أول وآخر اشتراك لي في مجلة أو جريدة حتى الآن. مع ذلك لا أنسى أبداً المتعة التي كنت أستشعرها حين استلم الظّرف البني الكبير وقت عودتي من المدرسة، وفيه عددٌ جديد.

في هذه المجلة، عرفت طريقي إلى صفحة التسالي والمعلومات العامة، وفي فترةٍ لاحقة تشجّعت على عمل شبكات الكلمات المتقاطعة، ونشرت لي ثلاث شبكات، ولكن بسببٍ كثرة الأخطاء، وذات مرة نشرت لي شبكة مع معلومات خاطئة، فزهدت في مواصلة المساهمة بجهد يضيع.

قصة عشق

العلاقة مع الكتب والمجلات ستكون أطول علاقة يقيمها مع الأشخاص والأشياء التي سيصادفها في الحياة، ولكنه في تلك السن الطّرية لم يشعر بما يمكن أن تؤول إليه. حدثت هذه العلاقة بصورة تلقائية وطبيعية، مثل أي قصة حب عذري. حبٌّ من النظرة الأولى... نظرةٌ فابتسامةٌ فموعدٌ فلقاءُ. وهكذا بدأت تنسج خيوط أطول قصة حب عرفها في حياته، بدءًا بمجلة «هنا البحرين»، التي كانت تنشر مواد منوعة، كان أكثر ما يشدّه إليها صفحة التسالي، وسرعان ما أخذ يرسل إليها بعض الكلمات المتقاطعة من تأليفه، نشرت له ثلاث أو أربع مرات، وصدمه أن ينشر بعضها أحياناً وهي مليئةٌ بالأخطاء، وأحياناً لا تتطابق الشبكة المنشورة مع الكلمات، وأحياناً تكون المربعات غير دقيقة. أما آخر مرة فنشرت باسم شخص آخر، ما جعله يكفّ عن

إرسال كلمات أخرى، فما أسوأ أن تبذل جهداً في عملٍ ينسب في النهاية إلى آخرين، ولو عن طريق الخطأ!

الخطوة التالية كانت مع مجلة الأطفال «سعد»، القادمة من الكويت، التي سيظل مواظباً على قراءتها لأكثر من سنتين. فهي مجلةٌ جذابةٌ بمقاييس تلك الفترة، إذ تحتوي على ما يشد انتباه أطفال ذلك الزمان، من معلومات وقصص وحكايات ورسوم كاريكاتير ومسابقات. ذات مرة كانت المسابقة تضمّ ثلاثة أسئلة، أحدها عن أول شاب فدائي في الإسلام، فأكمل الإجابات واشترى حزمة من الظروف، ودوّن على أحدها العنوان ليرسلها بالبريد.

والآن عليه أن يذهب إلى المنامة عبر باص النقل العام، ويتوجّه من المحطة إلى باب البحرين، حيث يوجد مكتب البريد. وعليه أن يقف في الطابور الطويل حتى يشتري بعض الطوابع، فقد كانت الرسائل البريدية آنذاك وسيلة الاتصال الأوسع انتشاراً، وسيبقى الحال كذلك لمدة عشرين عاماً آخر، حيث اكتسح البريد الالكتروني البريد التقليدي وأطاح به من عرشه في نهاية التسعينيات.

بعد ثلاثة أسابيع، كانت المفاجأة السارة، فقد وجد اسمه من بين الفائزين بالمسابقة، ورجع إلى قريته منتشياً من الفرح، وصادف أن لقيه أحد جيرانه فسأله عن سرّ حبوره، فأخبره عن فوزه بجائزة مقدارها خمسة دنانير، وأراه العدد ليتأكّد نفسه، فطلب منه أن يشتري له بارداً بالمناسبة، فلم يتردد عن شراء قارورة مياه غازية له، كما كان يجري آنذاك في مثل هذه المناسبات من فوز أو نجاح.

لكن الفرحة لم تكتمل، فقد ظلّ ينتظر وصول الهدية الثمينة، فمرّ أسبوع، تبعه أسبوعان، حتى تسرب إلى نفسه اليأس، فبعث برسالة إلى المجلة يذكّرها بفوزه قبل أسابيع دون أن يستلم هديته، وجاءه الجواب بعد فترةٍ ليؤكد أنهم بعثوا بها على عنوانه، فربما ضاعت بالبريد... والأهم أن ثمن القارورة ضاع هو الآخر على هديةٍ لم يستلمها!

قريتي

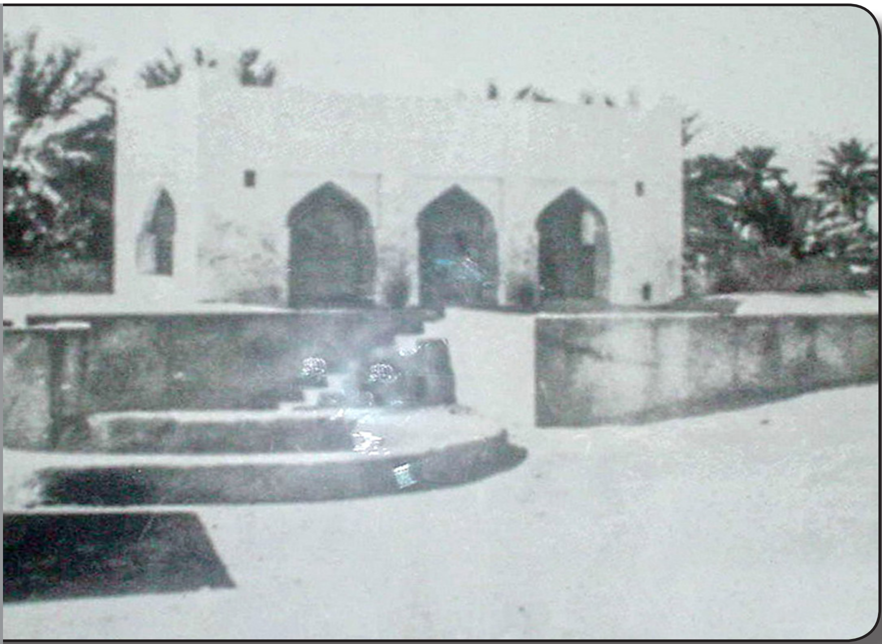

عين أبو زيدان... من هنا كانت تنطلق مواكب العرسان (في الخمسينات)

على ساحل البلاد القديم... في موقع محطة بترول عذاري حالياً (١٩٧٧)

القرية عالمٌ جميلٌ قائمٌ بذاته، ولكلٍ إنسان ذكريات جميلة عن الطفولة وسني الصبا، إلا انها في القرية تكون أكثر جمالاً ومتعة، فليس مصادفة تلك الرغبة المحمومة في العيش بالريف، بما يشكل ظاهرة عالمية في مختلف بقاع الأرض، حتى أصبح البيت الريفي من دلائل الرفاهية الاقتصادية في الكثير من المجتمعات الحديثة، في معاقل الرأسمالية، وفي أيام الاتحاد السوفييتي. وكانت الأرياف نقطة جذب للأغنياء والموسرين للتصييف في المزارع والبساتين، حيث المياه الجارية والفواكه الطازجة والراحة في الظلال، أما بعد تدهور الزراعة فأصبحت تلك الأراضي الخصبة مجتمعات مسيّجة في محيط القرى للأغنياء.

قريتي اشتهرت بكثرة العيون والكواكب، حتى ان المؤرخ اليوناني هيرودوت حين زار البحرين في القرن الخامس قبل الميلاد، رجّح ان الفينيقيين هم الذين اتخذوا البلاد القديم عاصمةً لجزر البحرين، وحفروا فيها وفي محيطها ينابيع المياه، حتى بلغ عددها المئتين. هذه المنطقة تعرّضت في منتصف السبعينات، إلى عملية منظمة لتجفيفها، فكان أن تم تركيب مضخات لسحب الماء من عين قصاري لمدة ثلاثة أسابيع، بحيث تم نزح الماء منها وتصريفه عبر القنوات المائية التي مازالت قائمةً آنذاك، وانتهت تلك الكميات الضخمة هدراً إلى البحر. بعدها تحوّلت إلى مستنقعٍ آسن، أخذ تتوالد فيه البعوض والحشرات حتى طالب الأهالي بردمها. وظلت ساحة مفتوحةً حتى تحوّلت قبل عدة سنوات إلى منتزه «حديقة قصاري» يرتاده الأهالي بأطفالهم خصوصاً في العطل وأيام الإجازات، وهي من أهم وأنجح الانجازات التي حققتها التجربة البلدية لصالح القرية.

في نهاية الستينات، كان يقوم عند مدخل القرية مبنى قديم فيه الكثير من الغرابة، لأنه كان مهجوراً منذ فتحنا أعيننا على الحياة. المبنى مكون من عدة غرف، تتوسطه ساحةٌ كبيرةٌ أرضيته مبنية بالاسمنت أو البلاط، على خلاف بقية منازل القرية. وكنا نرتاده أحياناً للعب، وعرفنا لاحقاً انه كان يستخدم كعيادة للقرية. في صبيحة أحد الأيام في نهاية الستينيات، جلسنا على صوت قرقعة الآليات التي شرعت في هدمه، وتقويض جدرانه المبنية من الصخور، حتى تعالى الغبار في الجو. في ذلك اليوم شاهدت للمرة الأولى الخفافيش، التي فوجئت بالاعتداء على مملكتها، فخرجت من مآويها مذعورة، وقد أصابها الضوء بالعشى، فكانت تطير على غير هدى لمسافةٍ قصيرةٍ حتى تصطدم بجدران المنازل القريبة فتسقط ميتةً على الأرض.

أرض العيادة بقيت لسنوات ساحة فارغة لركن السيارات، ولاحقاً تم استملاكها للاستفادة منها لمصلحة عامة، بإلحاقها بالمأتم، حيث تحوّلت إلى مبنى قائم بذاته، تغطّي إيراداته مصارفَ المأتمِ الموسمية، ويستخدم طابقه الأرضي كمخزنٍ ومطبخ لمؤسسة خدمت المنطقة وأبناءها لعدة عقود. الحديقة والمأتم مثالان على الخيرِ العميم الذي يعم الناس، على خلاف ما لو تم تمليكه لشخصٍ واحدٍ يستفيد منه ويحرم منه الباقون.

المعلّمة بنت الملا

رغم دخولي المبكر المدرسة، إلا أن الأسرة أصرّت على إلحاقي بحلقة تدريس القرآن الكريم، كما كانت تفعل أغلب الأسر في الستينيات. كانت مثل هذه الحلقة من بقايا نظام التعليم الديني القديم المنتشر في بقية الأقطار الإسلامية والمعروف باسم «الكتاتيب»، حيث يجري التركيز على تعليم قراءة القرآن.

لم تكن الحلقة تبعد عن بيتنا غير بضع خطوات، فهي تعقد في بيت جارتنا «بنت الملا»، المرأة المطوّعة التي تتولى تدريس المجموعة. وهي مجموعةٌ مختلطةٌ من البنات والأولاد، أغلبهم في سن الصبا، وربما يكون من بينهم فتياتٌ وفتيانٌ أكبر سناً. هناك ربما تخفق بعض القلوب لأول مرةٍ بخفقات الحب العذري البريء.

كانت الحلقة تُعقد في فناء البيت المفتوح (الحوش)، حيث يجلس الطلاب على مقاعد خشبية لا يزيد ارتفاعها عن الأرض عن خمس بوصات، وأمامهم القرآن في «كرسي» خاص. ولأن الوالدة اختارت فترة التحاقي بها في العطلة الصيفية، فقد كان الجو حاراً، ووسائل التكييف لا تتجاوز المهفة اليدوية المصنوعة من سعف النخيل، وإذا عطشت فهناك «حبُّ الماء»، المصنوع من الفخار، حيث يبرد فيه الماء بطريقة بدائية. وكان عليك الذَهاب إلى الدرس بعد الظهر، وتقرأ الجزء الذي تحدّده لكَ المعلمة كل يوم. وهي لخبرتها الطويلة في التقاط الأصوات، تتابعك وتتابع زملاء وزميلات أخريات في الوقت نفسه. ولأن وقت الدرس محدّد، فإن المجموعة التي قد تزيد على عشرة، تقرأ في وقت واحد، وهي تتابعهم فتردّ على هذا وتصحح خطأ ذاك.

بالنسبة لي، وبسبب تقدّمي في الدراسة النظامية وتمكّني من القراءة بشكل جيد، لم أستغرق غير شهور معدودة لختم القرآن، وظلت المعلمة تمتدحني أمام الآخرين لسرعتي في القراءة. ولم أكن أجد صعوبةً في القراءة، اللهم إلا في مطالع بعض السور التي تبدأ بالحروف المقطّعة المبهمة، مثل «ألم»، «ألر» أو «كهيعص»، مما لم يكن مألوفاً في دروس اللغة العربية بمدرستنا الابتدائية.

مقابل تعليم القرآن، كان على عائلة التلميذ أن تقدّم مبلغاً رمزياً للمعلّمة كلّ أسبوع، أو تقديم شيء عيني (بيضة أو كمية من السكر أو ما شابه). كما تقوم البنات ببعض الخدمة في منزل المعلمة، من باب المساعدة أو الإكرام، من غسل الأواني وكنس فناء المنزل، وأحياناً يقمن بغسل الملابس ونشرها على الحبال حتى تجفّ. وفي أوقات سابقة، كن يجلبن الماء من الكواكب والعيون. إنه بقايا نظام تعليمي قديم كان يعيشُ آخر أيامه، في مجتمع متدين بسيط وفقير... تتذكّره وتشعرُ بالحنين المختَلط بالأسى على تلك الأيام التي قد خلت، وانطوت بما فيها من بساطةٍ وصدقٍ وألفةٍ وصفاء.

لم تكن معلمتي «بنت الملا» الوحيدة، بل هناك عدة بيوت من حولنا تقوم ربّاتها بتعليم مجموعات أخرى القرآن الكريم. بعد ثلاثين عاماً، وبينما كنت أعد فصول هذا الكتاب، زارت معلمة أختى (أم السيد يوسف) بيتنا في إحدى ليالي شهر أكتوبر ٢٠٠٩، سألتها عن عدد طلابها فأجابت أن عندها خمسة أطفال، وأخذت تستذكر تلك الأيام بكثيرٍ من الحنين، وضحكَتْ حين جاءت على ذكر أحد طلابها الأشقياء، الذي كان يمر على بيتها عند الغروب بعد انتهائه من لعب الكرة، فيقذف بالمقلاعِ دجاجاتها النائمة على سور المنزل، فتصحو مذعورةً توقوق. وتقول المعلمة ضاحكة: «الآن اكتشفت لماذا لم يكن البيض يفقس عن فراخ»!

اليوم... يملّ طلابها الجدد القلائل سريعاً، فلا يقرأون أكثر من صفحة واحدة، تسوقهم الرغبة للعودة إلى منازلهم لمشاهدة الرسوم المتحركة، أو برامج الفضائيات المخصصة للأطفال، أو الاستمتاع بألعاب «البلاي ستيشن». ولأني لم أكمل غير قراءة القرآن، سألتها عن الكتب أو المواد الأخرى التي كانت تعلّمها فاتضح أنها كانت تدرّس كتاب «الفخري» للطريحي، وقصة «وفاة النبي» (ص)، لكن الأغرب أن البرنامج كان يتضمن خطبة الزهراء (ع) ذات البلاغة العالية، إلى جانب خطبة «الشقشقية» التاريخية للإمام علي (ع)، وهي من أمهات خطب «نهج البلاغة». هذه الدراسة الإضافية تساعد دارسهما ليشق طريقه نحو عالم الخطابة، فيبتدئ ك

«صانع»، يفتتح المجلس الحسيني ببعض الأبيات الشعرية، قبل أن يتأهل لصعود المنبر كخطيب. كما يساعد ذلك الفتاة على أخذ دورها في القراءة في عالم الحسينيات النسائية.

بعد عقدين، مع عودة الوعي الجديد، سيعود تعليم القرآن في أشكال جديدة ومتطورة، مراكز تحفيظ تُرصد لها الأموال الطائلة، ينقل إليها الطلاب والطالبات في باصات خاصة، ويتلقون تعليمهم في قاعات مكيفة. وهناك مسابقات حفظ وتجويد، محلية ودولية، وإذاعات وفضائيات خاصة بالقرآن الكريم. فلكلّ زمانٍ دولةٌ ورجال، ومعلّمون ومعلمات، ودعاةٌ وداعيات... بعد أن تعقّدت الحياة وتراجعت ثقافة التطوّع، وأوشك الجيل الأخير من المطوّعين والمطوّعات على الاختفاء.

براءة وبساطة

مظاهر البراءة والبساطة كانت ترفرف على حياة القرية وطقوسها وعاداتها الاجتماعية. ففي الأعراس، كان المعتاد حتى مطلع السبعينيات، أن تزف القرية عرسانها الجدد مرتين، الأولى بمناسبة ذهاب العريس عصراً إلى عين «أبو زيدان»، غرب منطقة الخميس، للاغتسال وتنظيف الجسم؛ والثانية في ليلة «الدخلة»، حيث يزفّه المهنئون من بيته إلى بيت العروس، مروراً بالمسجد حيث يؤدي ركعتين صلاةً مستحبةً على إكمال نصف الدين، ويسأل الله على إعانته على إكمال النصف الآخر.

في حالة كون العريسين من قريتين مختلفتين، فعادةً ما يتم حجز باص أو أكثر لنقل المدعوين جماعياً إلى القرية الأخرى، وكانت مثل هذه الرحلات من الفرص القليلة للفرفشة والمشاركة الجماعية في الأفراح.

ومن العادات التي كانت تعيش أيامها الأخيرة، (الشّرَاك)، المأخوذ من المشاركة، وهي رحلةٌ تنظّمها إحدى النساء إلى أحد المساجد أو المزارات الدينية. تنطلق الرحلة من الصباح حيث تلتقي النسوة عند نقطة تجمع، ويصعدن الباص مع أطفالهن، وهناك رسمُ مشاركة تدفعه كلٌّ منهن، بضع روبيات، وربما يحضرن مواد غذائية حيث يجري الطبخ هناك، فالرحلة تطول أحياناً حتى الليل.

لم تكن وسائل التسلية والترفيه موجودةً في تلك الآونة، في مجتمع شديد البساطة والفقر، فكانت هذه الرحلات التي تجري مرة أو مرتين في العام، مثل العيد الذي ينتظره الكبار والصغار. وكانت الرحلة تستغرق اليوم كلّه حتى المساء. وبما أن أكثر المواقع التي يقصدنها دينية، فإنها تشتمل على الجلوات الدينية (التواشيح)، والأدعية والصلوات، وربما يحمل بعضهن نذوراً، إلى جانب الترفيه والتسلية والترويح عن النفس. من تلك المواقع مسجد الشيخ أبورمانة في دمستان على الساحل الغربي من البحرين، ومقام الصحابي صعصعة بن صوحان العبدي (رض) في قرية عسكر على الساحل الشرقي، إضافة إلى جزيرة الشيخ إبراهيم التي تقابله وسط البحر، وهي جزيرة صخرية صغيرة، يقوم وسطها مسجدٌ عليه قبة صغيرة، كان يقصدها الأهالي من مناطق بعيدة، عن طريق البر أو البحر، وربما توقفت تلك الرحلات في بداية الثمانينيات.

جيلنا الذي عاش فترةً انتقاليةً بين الستينيات والسبعينيات، ربما كان أيضاً شاهداً على آخر نقلة طرأت على عملية الختان. ففي الجيل الذي سبقنا كانت العملية محط اهتمام واحتفال من قبل المجتمع، لا يقل عن مستوى الاحتفال بأعياد الميلاد بمقاييس هذه الأيام. لكننا لم نشهد تلك المرحلة، وكان على من يبلغ العاشرة أن يؤخذ إلى مستشفى السلمانية، استباقاً لدخوله مرحلة البلوغ. وبينما تعرض من سبقونا للختان على أيدي حلاقين لم يكونوا يعرفون شيئاً اسمه التعقيم، فإننا كنا أسعد حظاً من ذلك بكثير، فإذا دخلت المستشفى يتم وضعك على سرير متحرّك وتؤخذ في الممر الطويل إلى غرفة خاصة، ثم يجري تخديرك ويتكلم معك الطبيب بينما يغزك بإبرة التخدير، حتى تغيّب عن الوعي، ولا تستيقظ إلا وقد انتهت المهمة، وتخلّصت من تلك القطعة الزائدة. لكن مشوار الألم والمعاناة يبدأ بعد رجوعك البيت وزوال أثر التخدير.

إن عليك بعد الآن ولعدة أيام، أن تمسك طرف ثوبك الشفاف، وتبعده عن وسطك تجنباً للاحتكاك والألم، وعليك أن تتجنب الخروج من البيت لئلا يراك الصبية في تلك الحال فتنهال عليك عبارات السخرية والاستهزاء، خصوصاً أن ثوبك شفاف ولا تلبس تحته أي لباس داخلي يستر المنطقة الحساسة من الجسم!

ملاعب الصبا

القرية لم تكن قرية عاديةً ولا صغيرة، وإنّما تحمل في اسمها مدلولاً يوحي بالعراقة والأصالة والقِدَم: «البلاد القديم»، بشهادة ما فيها من آثار ومساجد وتكايا وحقول وبساتين وعيون تشي بماض عتيد. وهي تمتد على مساحة كبيرةٍ من الأرض، بين عذاري والزنج، وتتضمن عدّة أحياء لكل منها اسم خاص قديم.

في الجانب الشمالي يحدّها الشارع العام، ومن الجنوب والغرب تطوقها سلسلةٌ من المزارع التي تمر الآن بمرحلة الهرم والشيخوخة. كما كانت غنيةً بالآبار والعيون الطبيعية والكواكب، التي تضخ المياه الغزيرة فتروي المزارع والأحياء. وحتى بداية الستينيات، كان الأهالي يعتمدون على العيون وما يتفرّع عنها من سيبان في الغسل والنظافة، قبل مد شبكة المياه الحديثة.

في بداية السبعينات، حيث كانت الزراعة تمر بفصلها قبل الأخير، قبيل انفجار المد العمراني المجنون، كانت صداقتي لأبناء بعض الجيران العاملين بالمزارع فرصة لمرافقتهم للعمل فيها، وبيدي جرّبت كيف يتم جزّ البرسيم بـ «المحش»، ورأيت كيف يتم تحويل مجرى الماء من اتجاه لآخر بـ «السكار» لريّ القطع المزروعة بمختلف الغلال من فواكه وخضروات وأعشاب. ولا يمكن أن تنسى ذلك الإحساس الجميل وأنت تخوض في المياه الضحلة أو تطأ العشب برجليك الملوّثتين بالطين... والأجمل أن تقف في البركة الصغيرة أمام الماء المندفع بقوةٍ فيطيح بك بعيداً.

كان هناك نظامٌ محددٌ لتوزيع المياه على تلك المزارع والبساتين، حيث تضخه المضخة الحديثة (الجذّابة)، وتدفعه في الساب، ليظل متدفّقاً بفضل نظام هندسة الأرض وانحدارها، ليجري مئات الأمتار عبر «السيبان». وكنا نستحم في مجاري المياه الضحلة تلك لساعاتٍ دون مللٍ أو كلل، وكثيراً ما كانت توجد فيها أنواع من الضفادع والأسماك الصغيّرة التي تسمى (الحراسين).

في تلك البيئة الزراعية الخصبة، برع بعض الجيران في صنع الفخاخ الخشبية لاصطياد الطيور، وكانت لديهم مهارة في استخراج بعض الحشرات والديدان من جحورها، لتقديمها طعماً للطيور، ومع اختلاطي ببعضهم إلا أنني لم أتمكن من صيد طيرٍ واحدٍ قطّ في حياتي كلها.

على أن من أجمل البقاع التي شاهدتها في حياتي على الإطلاق، بقعةٌ مستطيلةٌ مزروعةٌ بأشجار اليامبو الصاعدة في السماء، وثمارها عبارةٌ عن نواة كبيرة يؤكل منها قشرها الأحمر اللذيذ. في تلك البقعة التي قد لا تمتد لأكثر من مئتي متر عمقاً، ارتسمت صورتها في نفسي كأنها بقعةٌ ظليلةٌ من بقاع الجنة، إذ لا يصلها من ضوء الشمس إلا أشعة متلألئة تتسرب خلسةً بين الأغصان الكثيفة.

منظرٌ آخر لا يغيب عن الذاكرة أبداً، عين قصّاري الشهيرة، التي تزيد مساحتها عن نصف ملعب كرة القدم، يحيطها سورٌ من الأسلاك، وتحيطها البساتين والأشجار الكثيفة بأغصانها المتشابكة التي تظلل الطريق، وتنبعث سيمفونيةٌ من نقيق الضفادع طوال ساعات الليل والنهار. وكان الأهالي يعتمدون عليها في الغسل والسباحة والاستحمام، فماؤها متدفق ودائم التجدّد، يغذّي المزارع الكثيرة هنا وهناك.

الآن العيون والكواكب جفّت، وكثيرٌ من المزارع والبساتين والحقول تحوّلت إلى أرض جرداء، ولم يبق منها إلا القليل. الروافد والسيبان رُدمت ولم يبق لأغلبها من أثر. والطيور والعصافير التي كانت كثيرة، قلت أعدادها مع اختفاء بيئتها الحاضنة. ولم يسأل أحدٌ كم من الأصناف الحية والنباتات انقرضت واختفت نهائياً من الوجود.

في نهاية القرية من الجهة الجنوبية، هناك البحر الذي يفصلها عن قرية توبلي المقابلة، بمسافة كيلومتر واحد، ويقطعها الأهالي عند الجزر خوضاً في المياه الضحلة.

هذا الساحل الذي يشكلٍ إحدى ضفاف خليج توبلي، غنيٌ بأشجار القرم، وتكثر فيه أنواع الطيور، خصوصاً في موسم هجرتها وتزاوجها. والطريق إليه محفوفٌ بالأشجار والبساتين، ويأتيه الناس يوم عيد الأضحى، حيث يشهد ازدحاماً شديداً من الصغار والكبار، والنساءٍ والأطفال، لإلقاء «الأضحيات»، في طقس اجتماعي جميل يتوّج موسم الحج محلياً.

فقبل العيد بأسبوعين، تعمد الأمهات عادةً إلى زرع شتلة صغيرة من الحشائش في قفة صغيرة، مصنوعة من سعف النخيل، وتحرص مع أطفالها على رعايتها وسقيها طوال هذه الفترة حتى يطول العشب ويرتفع رأسه، ليُضَحّى به عصر يوم العيد، التي أصبحت مناسبة لالتقاط الصور التذكارية بعد انتشار آلات التصوير. اليوم مع دفن الساحل وانحسار البحر، ينتقل الأهالي بالسيارة مع أطفالهم و«أضحياتهم» الرمزية إلى ما تبقى من سواحل قليلة في مناطق بعيدةٍ أخرى.

أيام الأعياد، كانت فرصة جميلة لممارسة هواية التصوير، وكنا نلتقط الصور في الأماكن المميزة في محيطنا، مثل البساتين إذ نختار الوقوف أمام الأشجار المثمرة، وأحياناً نقطع الشارع الرئيسي ونتجه شمالاً، للتصوير عند أسوار مسجد الخميس التاريخي.

آخر عشّاق عذاري

ليس بعيداً من هنا... تقع عين عذاري، التي تعاب دائماً بأنها تسقي البعيد وتترك القريب، حسب الجزء الرومانسي الظاهر من القصة، ولكن الجزء الآخر هو تلك الأقنية الهندسية القائمة، حسب نظام الريّ القديم للمزارع، التي تعتمد على تدفق المياه طبيعياً أكثر مما تعتمد على الأمطار، في أزمنة ما قبل توليد الطاقة. وعذاري التي ارتبطت نشأتها بقصص أشبه بالأساطير، شاءت الأقدار أن نكون آخر الأجيال التي ترتبط بها وجدانياً قبل أن يغيض ماؤها، ويجف ضرعها، ولتعاستنا نشهد تحول تلك الشابة الجميلة إلى امرأة عجوز.

عذاري تبعد عن منازلنا كيلومتر واحد لا غير، وكانت متنفسنا الوحيد طوال فترة العطلة الصيفية، فيجتمع الرفاق صباحاً، ونبدأ السير غرباً، متسللين عبر المزارع والبساتين، مجتازين الأعشاب الوحشية والأشواك النابتة والمستنقعات و«السيبان»، خائضين في الوحل والطين... على أن جميلة العذارى تستحق كل هذا العناء.

ما أن نصل إلى حافة العين، حتى نتخفّف من ملابسنا ونجمعها جانباً، ويبدأ القفز في الماء. في هذه العين الجميلة تعلمنا السباحة، ومن لا يجيدها يبدأ بالساب أولاً، لأن ارتفاع الماء فيه يناسب قامة الصبيان. كما ان الفرصة متاحةٌ للحركات الاستعراضية ولإثبات الشجاعة من خلال القفز من علو مرتفع.

في جانب القبلة من العين يوجد مسجدٌ، لكن حافته الشرقية المفتوحة تستخدم للقفز في الماء. ويقابله في الجانب الشرقي مبنى صغير مسقّفٌ يصعده الشجعان للقفز من علو طابقين في الماء، وهي حركة لم أجرؤ عليها قط. كما توجد اثنتان من الأخشاب العرضية عن اليمين والشمال تستخدم للقفز من علو متوسط.

مرة وفيما كنت أنوي الخروج إلى سطح الماء، قفز شخصٌ آخر مقدّماً رأسه إلى الأمام، وفي اللحظة التي كنت أنتظر الخروج لأستنشق الهواء، ارتطم رأسه بظهري فأعادني مرةً أخرى إلى الأعماق، لينتابني ألمٌ كاد يقطع أنفاسي، لم أشعر بمثله في حياتي من قبل.

والسباحة في الماء تشعر الإنسان بالجوع، فكيف بمن يقضي ساعتين أو ثلاث ساعات متواصلة تحت الماء؟ على أن هذه المشكلة كنا نتدبرها في طريق العودة إلى منازلنا، فنقع على كثير من الأعشاب ذات الطعم المالح، تسمى «قلّمان»، ونلتهم ما جادت به الطبيعة من خيرات مجانيةٍ لعابري السبيل من أمثالنا، دون حاجةٍ إلى غسلها بالماء!

سنوات بعد سنوات، لم تنقطع مسيراتنا اليومية إلى عين عذاري في الصيف، لم نملّ منها ولا ملّتنا، غرامٌ لا تزيده الأيام إلا ضراماً، أشبه بجماعات الصوفية الهائمين بين التكايا والبراري دونٍ أن يلقوا عصا الترحال. على أن هذه العلاقة لم تخل من منغصات، تأتينا دائماً من أخواننا الأصغر سناً، الذين يقومون بدور المخبرين لدى أهالينا، الذين يمنعوننا من الذهاب خوفاً علينا من التعرّض لأي اعتداء. ولم نكن نعدم الحيلة، فبعد ساعات من السباحة في العين، تخرج بعينين حمراوين وأصابع مجعدة الأطراف، وشعرٍ أشعث خشن الملمس. وكنا نعالج ذلك بتأخير الرجوع إلى البيت، والمكوث ساعةً حتى تضمحل آثار الجريمة ويعود للجلد وضعه الطبيعي. ومع ذلك يقوم الوشاة بمهمتهم غير المقدسة، فبين فترةٍ وأخرى يحصل بعضنا على تقريعاتٍ أو علقاتٍ ساخنةٍ في سبيل حبّ كبيرة العذاري.

جنة السَرْدُوب

وإذا كانت عذاري متنفسنا في العطل الصيفية الطويلة، فإن القرية الفقيرة لم تبخل علينا بتوفير ساحات للعب على قدر حالها. فإلى جانب الأزقة التي كنا نلعب فيها الكرة بين فترةٍ وأخرى، شكّل لنا «السردوب» الساحة التي فيها لعبنا ولهونا، وارتبطنا بها وجدانياً في سن الطفولة والصبا حتى مطلع المراهقة والشباب.

السردوب ساحة ترابية جرداء، تزيد قليلاً على نصف ساحة كرة القدم، لكنها كانت بسعة الدنيا عندنا، نهرع إليها بعد تناول الغداء بفترة قصيرة، لا يمنعنا عن اللعب الحر الشديد في القيظ، ولا البرد القارص في الشتاء، اللّهم إلا إذا هطلت أمطارٌ غزيرةٌ خلّفت وراءها مستنقعات تدوم أياماً حتى تجففها الشمس. فيها نظّمنا دورات رياضيةً على جائزة لا تزيد على دينار واحد، يوزّع بالتساوي على كل اللاعبين. وإذاً زادت الميزانية اشترينا كأساً صغيراً بدينار ونصف، يتسلمه كابتن الفريق الفائز، ومن سعادتي أني مازلت احتفظ بواحدٍ من تلك الكؤوس النادرة.

لم يكن ينقصنا الحماس، ولم نكن نحتاج إلى حوافز وتشجيع، فالرغبة في اللعب كانت ذاتية، وللحق لم يكن أمامنا وسائل ترويح أخرى. كنا نواصل اللعب ساعتين على الأقل كل يوم، ولم يكن يوقفنا عن اللعب أحياناً إلاّ غروب الشمس وحلول الظلام. وكثيراً ما كان أهلونا يوبّخوننا على التأخر عن وقت الصلاة. فبعد رفع الكرة من الملعب، كنا نميل أحياناً إلى منزل أحد أصدقائنا فيوفّر لنا الماء البارد أو الفواكه والرطب. وأحياناً عندما أعود إلى المنزل منهكاً، جائعاً، اتجه مباشرةً إلى المطبخ لتناول بعض حبات التمر أو الرطب وشرب فنجانٍ من القهوة قبل الوضوء والتوجه إلى المسجد للصلاة. لن تجد وجبةً ألذّ ولا أمتع منَ تلك الأكلة الخفيفة، وأنت في تلك الحالة من التعب والجوع والإنهاك.

السردوب بعد غيبة طويلة، فوجئت به وقد تحوّل إلى بيوت. أحدها ينتصب في موقع المرمى الذي سجّلت فيه هدفاً عجيباً في إحدى المباريات بضربة ركنية؛ وأصبت أمامه بجرح في خدّي ظل يشوّه وجهي لأسابيع، بسبب اصطدامي بأحَد لاعبي الفريق الخصم. وفي هذا المرمى وقفت ذات يوم أمام زميلي ليلتقط لي صورةً مازلت أحتفظ بها، لم يظهر مني إلاّ قدمي التي وضعتها على الكرة، بسبب مهارته في التصوير!

المباريات، حتى لو لم تكن حماسية، لم تكن تخلو من الإصابات، رضوضاً وجروحاً والتواءات في المفاصل، والتي تصل أحياناً إلى الكسور. وفي البداية كنا نلجأ إلى الحاج جمعة، المزارع الطيب و«المرّاخ» الماهر في التدليك وعلاج الاصابات. إلا أن الرجل ضاق ذرعاً لكثرة ما فرضنا عليه من أعباء شبه يومية، فرفض لاحقاً علاج كلّ من يأتيه مصاباً نتيجة لعب الكرة، فكنا نحتال عليه بنسبة الإصابة إلى المدرسة أثناء درس الرياضة، رحمه الله.

في ساحات القرية أيضاً، كنا نمارس الألعاب الشعبية الأخرى، وبعض الشبان كان لديهم هواية ركوب الدراجات، وكانوا يقيمون سباقات لتخطي الحواجز على مرتفعات ترابية يقيمونها على أطراف أحد البساتين. أما الحدث الأهم فكان يجري في الاحتفال السنوي الذي تقيمه المدرسة منتصف العام الدراسي، ويحتوي على فقرات متنوعة، وكنا نقيم مهرجاناً مشابهاً تقليداً لذلك المهرجان، وفي إحدى السنوات أعدنا تقديم تمثيلية تحكي قصة الهنود الحمر، الذين يعتدون على المغامرين الغربيين، ولعبت دور «الجنتلمان» الأبيض، الذي ينقذ الفتاة المختطفة من أيدي الهنود الحمر المتوحشين، ويحرق قراهم، ويقتل رجالهم بالجملة بمسدسه الصغير!

من الواضح أن مؤلف التمثيلية الأصلي في المدرسة استوحاها من أفلام «الويسترن» ومغامرات الكاوبوي، فهي تقدّم وجهة نظر المهاجرين البيض الذين غزوا بلاد الهنود الحمر وأسقطوا حضاراتهم العريقة، ودمّروا دولهم وأحرقوا معابدهم، وأقاموا على أنقاضها مستوطناتهم بقوة النار والبارود. والحيلة انطلت علينا نحن الصغار أيضاً، ولم ندرك الحقيقة إلا عندما كبرنا وقرأنا واكتشفنا مقدار الخديعة في القصة كلها.

نساء من القرية

من النساء اللاتي لم يغادرن الذاكرة، عجوزٌ كفيفة، أبصرناها منذ اليوم الأول وهي كذلك. كانت تعيش في «عشّة» من سعف النخيل، لم نكن نعلم أسرتها ولا كيف انتهى بها الحال وحيدة في كوخ.

الكوخ كان يقوم على طرف كوكب، يجري منه الماء إلى البساتين المجاورة، وكانت النساء يغشينه لغسل الملابس والأواني وملء الجرار بالماء قبل مدّ شبكة المياه الحكومية للبيوت. وكانت تحيط هذا الكوكب مصاطب من الحجارة المنحوتة بعناية، ويقع مدخله في طرفه الشمالي، بشكل سلّم منحدر. وفي أحد أيام سنواتي الأولى، كنت على دراجة صغيرة، فاقتربت من المدخل المنحدِر، وبسرعةٍ خاطفة تطوّر المشهد الدرامي حيث تَدحرجتُ بي الدراجة على السلم الصَخري، لأَخرج وقَد شُجَّ رأسي، وملابسي مضمخةٌ بالدماء. تلك الحادثة المروعة خلقت في نفسي رهبةً من الدم،

فكنت أفقد وعيي أو أصاب بالغثيان عند الاضطرار لسحب عينة من الدم حتى لو كانت بوخزة إبرةٍ صغيرة. ولم أتعافَ من هذا الخوف إلا بعد الثلاثين.

هذا الكوكب، كانت جارتنا العجوز بنت علي تغشاه لحاجاتها، وبحكم الخبرة كانت تتلمس طريقها للبيوت القريبة، وكنت أقودها طفلاً صغيراً في المساء من بيتنا إلى كوخها الصغير، المكوّن من حجرة تنام فيها، مكتظة بالأواني والملابس والحاجيات، وقربة فخارية لتبريد الماء، وتتصلُ الغرفة بفناءٍ صغيرٍ ينتهي بباب خشبي متواضع، يمكنها قفله عند الخروج بمزلاج.

في فترة رواج الحرائق في العشش وبيوت الصفيح، كانت عائدة في ظهيرة أحد الأيام من بيت أحد الجيران، فأحست بواهج غير طبيعي من الحرارة، أخذ يشتد كلما اقتربت من الكوخ، وقبل أن تصله استشعرت بهبّات من اللهب تلفح وجهها، فتوقّفت وأخذت تستنجد وتستغيث. كان الكوخ يحترق، ربمّا لتركها شيئاً يحترق قبل مغادرتها، وربما بفعل فاعل. بعد فترة من الوقت وصلت سيارة إطفاء الحرائق وانهمك رجال الإطفاء في إخماد الحريق. لم يبق من ذلك الكوخ وما فيه غير الرماد، وبقايا أعمدة خشبية متفحمة وأوانٍ لفحتها النار فأحالت لونها جميعاً إلى السواد. وهكذا انتقلتْ إلى بيتٍ مهجورٍ منَ الطين، عاشت فيه عدة سنين، حتى أخرجها صاحبه ليهدمه ويبنيه بيتاً جديداً. فانتقلت إلى «صندقة» من الخشب لتقضي فيها بقية سنوات عمرها، حيث تم بناء كوخٍ آخر أصغر حجماً، وتم إيواؤها فيه من جديد.

كان الكوخ الجديد يقع على بعد أمتارٍ من بيتنا، وهكذا زاد ترددها علينا، حتى كانت تجلس وتتحدث وتغتسل فيه أحياناً. وحين تريد الذهاب عصراً إلى الحسينية أقودها من طرف ثوبها مجتازاً بها الشارع حتى أوصلها إلى الفريق الجنوبي.

المرأة الأخرى أم علوان... وهي صورة نموذجية للمرأة الكادحة الصبورة على جور الزمان. أظنها تزوجت في سن صغيرة برجل كبير في السن، فلم أرَ زوجها إلاّ مرة واحدة في حياتي، حين دخلت يوماً بيتها القديم المبني من الطين، وبالصدفة دلفت إلى غرفة مظلمة، فوقعت عيني على رجل طاعن في السن، لحيته بيضاء، ممدداً على الفراش. عرفت حينها انه زوجها المقعد منذ سنوات.

كانت أم علوان أمّاً تعول أربع بنات، لم تمد يدها إلى أحد، بل كانت تصنع الحُصُر والقفاف والمهفات اليدوية من السعف، الذي تستخلصه من أشجار النخيل بالبساتين، وتغسله وتجففه وتطرّيه وتلوّنه حتى يصبح مرناً قابلاً للتشكيل.

كانت تذهب إلى الحقول أيضاً لانتزاع أوراق بعض الأشجار لتجفّفها وتطحنها وتعمل منها الحناء، ومن هذا وذاك كانت تعيل نفسها وبناتها. وكانت تراود بيتنا كل يوم، صباحاً ومساءً، تحمل فوق رأسها قفةً من الخوص، ومعها عدّة الشغل، فإذا رفع المؤذن صوته بأذان المغرب لملمت عُدتها، وطوت الحصير الجديد الذي تعمل عليه، ووضعته فوق رأسها لتعود إلى بيتها وبناتها.

كانت تدفع اثنتين من بناتها لمساعدة الوالدة في أعمال البيت التي لا تنتهي، كلّ ذلك حباً في «السادة»، وتقرباً بذلك من جدّهم الرسول (ص). وحين سافر الوالدان للحج مرةً، وللعراق مرةً أخرى، كانت ابنتها الثانية عفيفة، تقوم مقام الأم في تدبير كلّ صغيرة وكبيرة من شؤون المنزل، فأصبحت بمثابة الأخت الكبرى الحنون في عائلة كنت أكبر أبنائها. كانت الحياة بسيطة، والناس على سجاياها وفطرتها، وإيمانها القائم على الرضا والقناعة والتسليم.

العجوزان بنت علي وأم علوان، قضتا نحبهما في منتصف السبعينات، ولم تبق في الذاكرة منهما غير أطياف هائمة في الفضاء، وقصة طريفة جمعتهما في الذاكرة. ففي أحد الأيام قالت أم علوان مداعبةً صاحبتها: «يا بنت علي، إذا استخارك الله إلى جواره فلا تنسي أن تزوريني في المنام لتخبريني بما حدث لك بعد الموت». فقالت العجوز الضريرة: «الله لا يقوله، (لا تفاولين عليي)، بعد عمرٍ طويل»!

وقضى الله بأن يختار «بنت علي» إلى جواره قبل صاحبتها، ومضت الأيام والشهور، وشاهدت أم علوان صديقتها في المنام، فقالت لها: ألم تعديني أن تخبريني بما حدث لك وما شاهدت بعد الموت؟ فأجابت: «لا أستطيع إخبارك، لا أستطيع... أعوذ بالله»! وغابت عنها وانقطع الحلم.

اللهم ارحم العجوز «أم علوان»، فقد عاشت من كدّ يمينها، بصنع السلال والحصرِ والمهفات والحنّاء، لم تمد يدها إلى مال أحد. وابنِ اللهم لزميلتها «بنت علي» بيتاً في الجنة، فهي لم تملك عشّةً في الدنيا.

تسلية أيام زمان

على ساحة البليار بمحاذاة منتزه عذاري... في إحدى الدورات الصيفية (١٩٧٦)

مسابقات ومهرجانات تحاكي مهرجانات المدرسة السنوية (١٩٧٥)

التلفزيون لم يبدأ بالانتشار بعد، ونحن نتحدث عن مطلع السبعينات. وفي عقد الخمسينات الذي شهد منتصفه العدوان الثلاثي على مصر وما رافقه من حركة جماهيرية معادية للاستعمار، كان تلفزيون أرامكو يحرص على بثّ حلقات الملاكمة الأميركية كنوع من شغل الجماهير وتفريغ طاقاتها على الشاشة بدل تفريغها في الشارع والمظاهرات.

آر تي في بحرين

في نهاية الستينات اشتهر أحد الباعة بوجود تلفزيون في دكانه، فكان مهوى أفئدة الكثيرين، يتناولون المرطبات و«حب الشمسي» و«الحبة الخضراء»، فيما يشاهدون ما يبثه تلفزيون الكويت من تمثيليات ومسرحيات محلية، أو أفلام مصرية. وفي إحدى الليالي قادتني قدمي إلى ذلك الدكان، فكان التلفزيون يبث تمثيلية حزينة، استهوتني حبكتها فأخذت مكاني على أحد المقاعد الخشبية هناك. وكانت الوالدة بين فترة وأخرى تأتي لتناديني للعودة إلى البيت، ولم أعد بصحبتها إلا في وقت متأخر من الليل، ظلّت طوال الطريق توبّخني على البقاء هناك.

في بداية السبعينات، حين عاد خالي من دراسته في دمشق، وانتقل إلى بيت مستأجر مع جدتي وخالتي، اقتنى في البيت الجديد جهاز تلفزيون، فأخذت وأخوتي الصغار نذهب كلّ ليلة لمشاهدة المسلسلات المصرية، وكان والدي يسمح لنا بالمبيت فقط ليلة الإجازة الأسبوعية.

في تلك الفترة شاهدت لأول مرة الحلقات الدينية التي يبثها تلفزيون قطر للشيخ يوسف القرضاوي، صحيح إنني لم أكن استوعب كل ما يقول آنذاك، لكني كنت أجلس لأستمع إليه بإنصات، فالبيئة المحافظة التي نشأت فيها كانت كفيلة بزرع بذور النزعة الدينية منذ الصغر. بعد سنوات، كانت العائلة كلها تتسمّر أمام التلفزيون لمشاهدة حلقات المرحوم الشيخ علي الطنطاوي بعد ظهر كل جمعة، وتتابع بشغف أجوبته على أسئلة واستفسارات المشاهدين.

بعد سنوات أخرى، وفي منتصف الثمانينات، اكتشفت بالصدفة مقالاً للشيخ الطنطاوي في كتاب القراءة المدرسية، عن رحلة صعوده إلى غار حراء. المقال سحرني بحلاوة صياغته وجميل تعبيراته، فحرصت على اقتناء الكثير من كتبه فيما بعد

كلما تم تنظيم معرض للكتاب، أو سافرت إلى الديار المقدسة لأبحث في مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة عن كتبه. وعندما زرت المدينة لأول مرة في حياتي منتصف التسعينات، حرصت على ارتقاء الجبل، الذي استغرق صعوده خمسين دقيقة، وأنا أستحضر ذلك المقال.

في العام ١٩٧٥، كان الناس على موعد مع حدث جديد، وهو بداية البث التلفزيوني من البحرين باسم «آر تي في بحرين»، وكان البث لأول مرة بالألوان على مستوى الخليج، ومنذ ذلك الحين بدأ انسحاب التلفزيون العادي (الأبيض والأسود)، من صالات البيوت ليخلي مكانه للتلفزيون الملوّن.

سينما ومسرح

لم تكن الخيارات متنوعة أمامنا نحن الصغار، فمن الأفلام التي تستهوينا أفلام طرزان والمغامرات الغربية، والكاوبوي، إلى جانب المسلسلات المصرية. حتى الكبار كانت خياراتهم محدودة، لمحدودية القنوات نفسها، حيث يتنقلون بين محطات قطر والسعودية وأرامكو، وإذا كان الجو صحواً أمكنهم مشاهدة تلفزيون الكويت، أما إذا ساءت الأحوال الجوية بسبب الأمطار والرعد والبرق، اختفى البث وانقطع استقبال كافة القنوات.

الرجال وحدهم كانت تتوفر لهم خياراتٌ أخرى خارج البيت، بمشاهدة الأفلامٍ التي تعرضها دور السينما، أغلبها في المنامة، والباقي في المحرق وعوالي... وأخيراً في مدينة عيسى.

إلى السينما، كان الوالد يصطحبني معه أحياناً لمشاهدة أحد الأفلام التي تعجبه في سينما النصر بالمنامة، أو القصيبي بالنعيم. لم تكن السينما سينما، فبعد أن تحجز التذكرة وتتجاوز البوابة، ستجد نفسك وقد دخلت إلى ساحة كبيرة واسعة مسوّرة بالجدران، تتوزّع داخلها صفوفٌ من الكراسي الخشبية كتلك الموجودة في المقاهي الشعبية. ولم يكن غريباً أن تمرق تحت أقدام المشاهدين بعض الفئران.

لم تكن القاعة مكيّفةً، لأنها ببساطة بلا سقف، فأنت تستمتع بمشاهدة الفيلم في الهواء الطلق! لا أدري الآن ماذا كانوا يصنعون في الشتاء، عندما تهطل الأمطار

أو تشتد ضراوة البرد، لأن والدي لم يكن يصطحبني معه إلا في الصيف... إلا أن الأرجح إغلاق السينما، وصرف الزبائن المتعطّشين للأفلام.

في أولّ مرة دخلت فيها السينما، هالني حجم الشاشة الضخم، بعد الاعتياد على الشاشة الصغيرة. وكان الجمهور يتفاعل كثيراً مع الفيلم، فإذا أعجب بلقطة رومانسية أو حماسية قابلها بالصفير والتصفيق، وإذا لم تعجبه بعض المشاهد ألقى على الشاشة بالزجاجات الفارغة، وتزداد مظاهر الاحتجاج هذه عندما لا يعجبه الفيلم برمّته، ويشعر انه خسر سعر التذكرة، فربما عمد إلى تكسير المقاعد الخشبية أو قلبها وبعثرتها!

لم تحتفظ الذاكرة الطرية بشئ عما شاهدته آنذاك من أفلام معدودة على كل حال، إلا فيلماً واحداً، أتذكر منه بعض المشاهد، عن سجين يُحبس في قلعة بالصحراء، وينجح في عمل ثغرة بجدار السجن فيتمكن من الهرب والنجاة. لا شكّ انه فيلمٌ تاريخي، لا أدري هل هوَ عن قصة عنترة بن شداد، أو أبوفراس الحمداني، أو غيرهما من الفرسان.

إلى جانب السينما كان الوالد يصطحبني أحياناً إلى المسرح بالجفير، حيث تُعرض بعض المسرحيات المحلية، التي لا أذكر منها غير مشاهد قليلة من مسرحية أحد أبطالها مؤذن القرية، وبعض المشاهد في سوقها وحوارات بالفصحى بين المُمثلين لم أكن أفقه منها شيئاً. وكما هو واضح المسرحية تاريخية، على أن مسرحيات تلك الفترة كانت تتكلم عن الغوص ومعاناة الغواصين وظلم النواخذة، مما يجد له صدى عند الجمهور، ومن هذا الجمهور كان والدي وصديق عمره الحاج عبدالرسول العلي.

جيلٌ عصاميٌ صعب المراس

قصة الرجلين اللذين جمعتهما صداقةٌ تخطت علاقة النسب، متشابهة إلى حد كبير، فقد جمعتهما المهنة والكدح والاعتماد على النفس والصبر وتحمل المسؤولية عن عائلة كبيرة. كان لقاؤهما بالصدفة، حين تعطّلت سيارة الحاج عبدالرسول ذات يوم، فتوقّف والدي لإصلاحها لما يمتلكه من خبرة في هذا المجال. ومن خلال ذلك

الحادث توطّدت علاقتهما وامتدت لأكثر من أربعين عاماً. عندما كان يسافر أحدهما يتولّى الآخر السؤال عن عائلته ومتابعة شؤونها، وعندما يمرض أو ينقطع عن العمل اليومي فجأةً يزوره في المساء، ويمدّ يده بالمساعدة إذا مرّ بضائقة. كانا مصداقاً حياً للقول المأثور: «ربّ أخٍ لم تلده أمك».

في إحدى السنوات، تعرّض الوالد لحادث مروري أقعده بالمنزل أياماً. كنت عائداً من المدرسة في ذلك اليوم، فوجدته على غيرٍ عادته نائماً في الفراش، وعرفت انه تعرض للإصابة، وظننت ان الحادث بسبب السرعة، وبقلبِ طفل مفجوع، قلت له: «لماذا سقت بسرعة بابا»؟ فأجاب بنبرة عتابٍ واهنة مازالتٍ ترن أصداؤها في أذني: «حتى لو لم تخطئ ياولدي فسيخطئون عليك»! وفهمتٍ انه لم يكن مسرعاً، وإنما كان الخطأ من السائق الآخر.

تعطّل الأب الكادح وانقطاعه عن العمل يعني انقطاع الدخل اليومي للأسرة، وفي مثل هذه الأحداث يهب الصديق لنجدته.

الوالد من جيلٍ صعب المراس، عرك الحياة وعركته، تنقل بين عدة مهن، وهاجر لأكثر من بلد، وكاًن يحب الأسفار على قلة ما سافر. كانت أول مهنه النجارة، وفي بيت العائلة الذي اشتراه بمدخراته التي جمعها من عمله بالمنطقة الشرقية، كان هو الذي صنع أبواب الغرف، التي ظلت صامدةً خمسين عاماً لجودة خشبها وقوة صنعها، ولم تستبدل إلى أبواب حديثة إلا بعد وفاته قبل خمسة أعوام.

عرف العمل كدحاً متواصلاً دون توقف. لم يأخذ استراحة محارب طوال حياته إلا في العام الأخير، حين أقعده المرض على الفراش. عمل في نقل الملح من المملطة يوم كان الملح سلعة رئيسية في البيت البحريني، قبل أن تدخل الثلاجات وطرق التبريد التي تحفظ الطعام، وقبل أن تنتشر المعلبات المحفوظة في الأسواق وتتغير الانماط الغذائية للناس. وعمل في الشاحنات يوم كان الطلب شديداً على مواد البناء، في ظلّ الطفرة العمرانية الأولى التي أعقبت ارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣. كان يومها يخرج من الفجر ونحن نيامٌ، ويعود إلى المنزل في الليل ونحن نيام. وكنا لا نراه أياماً، ولما أسأل الوالدة عنه تقول: إنه في الشغل. أكثر من ١٦ ساعة يقضيها جرياً وراء اللقمة الحلال. جيلٌ لم يكن يتأفف أو يتثاقل عن تحمل مسؤولياته، أو يضعف عن إعالة عائلةٍ كبيرةٍ، أكثر أفرادها من صغار السن.

عاش الوالد سنوات من حياته متغرّباً طلباً للرزق، وفي السعودية تعرّف على الشيشة أو «الكدو»، ومنذئذ أدمن التدخين طوال نصف قرن، كان يبدأ نهاره به قبلٍ الإفطار، ويختم ليله بقرقعتّه لساعات قبل أن يأوي إلى النوم. إدمانٌ أورثه أمراضاً في سنواته الأخيرة، واضطره لإجراء عملية قلب مفتوح أتعبته.

عمله بالشاحنات التي كانت تتعطل بين فترةٍ وأخرى، جعله يعتمد على نفسه في محاولة تصليحها، فكان يسهر في بعض الليالي حتى منتصف الليل وهو يحاول إصلاحها، ليخرج بها صباحاً ليواصل تعب الليل بكدح النهار.

جيلٌ ورث صلابة جيل الغوص، وبعد بوار تجارة اللؤلؤ، اتجه أبناؤهم الأبرار إلى البر لانتزاع لقمتهم من بين الصخور في الصحاري التي تدفقت بالنفط. لم يكونوا يمدون أيديهم بالحاجة إلى الغير. عمل وهو صغير السن، ولما قبض أول راتب له، جاء به إلى والده مطاطيء الرأس وسلّمه إليه ممتناً، فأعطاه منه مصروفاً يكفيه بالكاد لتدبير حاجاته اليومية واحتفظ بالباقي.

بعد عقود، عندما استلمت أول راتب لي، ذهبت إليه، وقصته الأولى في مخيلتي، سلمته الظرفَ وأنا مطأطئ الرأس، يعلوني الخجل من الكلام، سألني: ما هذا؟ قلت: إنه راتبي الأول تصرف به كما تشاء. أعاده لي رافضاً أن يستلم منه فلساً واحداً. إنه جيلٌ عظيمٌ لا يتكرّر، أخشى أن أقول انه آخر الأجيال التي يكثر فيها العصاميون والكادحون.

السفر إلى العراق

مشهد العسكريين في سامراء بالعراق

مع الوالد (رحمه الله) على العتبات الأولى للمأذنة الملوية في سامراء (١٩٧٣)

في منتصف العام ١٩٧٣، وقبيل امتحانات منتصف العام للصف السادس الابتدائي، قرّر الوالد السفر إلى العراق لزيارة «الأربعين»، وأراد أن يصطحبني معه دون بقية أفراد العائلة.

قبل موعد السفر بأيام، طرق المشرف الاجتماعي عباس الموسوي باب الصف، وطلبني من المدّرس، فخرجت معه ليطوف معي بساحة المدرسة عدة مرات، ألقى عليّ خلالها موعظةً طويلةً عن أهمية الامتحانات النصفية في هذه المرحلة الحاسمة من الدراسة. وفي الأخير أخبرني برغبة والدي في اصطحابي معه للعراق، ونصحني بالبقاء لأداء الامتحانات، فالسفر يمكن أن يُعوّض، إلا أن الامتحانات لا يمكن تعويضها بحال. وبعد فترةٍ من الصمت، أجبته بكلمةٍ أصابته بالكثير من الاحباط: «سأسافر».

وهكذا حزمت أمري واتخذت قراراً مكلفاً، ستكون نتيجته الكثير من الدوائر الحمراء في شهادة منتصف العام، إلا أن الله سلّم واستطعت تعويض الخسارة الفادحة في امتحانات نهاية العام والقفز إلى المرحلة الاعدادية. وهو قرارٌ لم أندم عليه على الإطلاق، وكم اعتبرت نفسي - في مراحل عمرية متقدمة- موفقاً لاتخاذه في تلك السن المبكرة.

هذه الرحلة كانت فرصة السفر الوحيدة التي جمعتني بالوالد، وكانت تجربة بالغة الثراء في تلك السنِ الطرية. فهي أول مرة أسافر فيها في حياتي، وجرّبت فيها مختلف طرق السفر... جواً وبراً وبحراً. وأتيحت لي فرصة مشاهدة الأماكن التاريخية التي يتكرّر ذكرها على المنابر كل عام.

في رحلة الذهاب ركبت الطائرة لأول مرة في حياتي، وأُصبت بالدوار والغثيان، وأحضرت لي المضيّفة كيساً ورقياً للتصرف في مثل هذه الحالات.

بعدما هبطت الطائرة في مطار بغداد، استقلينا سيارة أجرة شاركنا فيها ركاب آخرون. وقبل الوصول إلى كربلاء، توقّفت السيارة في إحدى الاستراحات بالطريق، حيث يوجد مطعمٌ ومسجدٌ وبعض الحوانيت الصغيرة التي تفي بحاجات المسافرين. بعد صلاة الظهر، وفيما انتهيت من غسل يدي بعد تناول الغداء، فوجئت وأنا خارجٌ من دورة المياه بوجود صناديق خشبية مستطيلة غريبة الشكل، أحد جانبيها أعرض من الآخر، لما سألت الوالد عنها قال إنها توابيت لنقل الموتى. ولما أحسّ بخوفي قال مطمئناً: «لا تخف... سترى الكثير منها عندما نذهب إلى النجف وكربلاء.

في كربلاء سكنا في غرفة صغيرة غير مؤثثة، بالطابق الأول في أحد البيوت القديمة أو الخانات. كان بيتاً قديماً فيه كثيرٌ من الدهاليز، أشبه بالمغارات، أو هكذا خيّل لي. وكان الوصول إليه عبر أزقة ضيقة بالكاد تتسع لمرور شخصين دون احتكاك، وفي مثل هذا البيت علينا أن نقضي الجزء الأكبر من الرحلة.

كان من عادة والدي أن ينفحني بعض النقود في أعقاب الوجبات التي نتناولها بالمطعم، ولن أنسى ثقته بي وتعامله الراقي معي، إذ كان يترك لي حرية التنقل والاستكشاف طوال النهار، على أن ألتقيه بالغرفة في ذلك البيت، في ساعة معينة من الليل والنهار للذهاب إلى الحرم للصلاة، ثم الخروج لتناول الغذاء أو العشاء. اما في الصباح فكان بالإمكان تناول الحليب أو شراء وجبة الإفطار من أحد الباعة المنتشرين عند الحرم، أو أخذها لتناولها في غرفتنا الصغيرة.

تجارب الاستكشاف لم تكن تنتهي لدى صبيٍّ في الحادية عشرة من عمره، فكانت مغامراته تبدأ بعد الإفطار، يخرج ولا يعود إلا وقت الزوال. لا أتذكر الآن أين كنت أذهب، ولكن من المؤكد أن هناك الكثير من الأماكن والأزقة والزوايا والتكايا أشبعت فضولي ورغبتي العارمة بالاستكشاف.

شمعة كبيرة

على أن الحصيلة لم تقتصر على الإشباع البصري بالجديد من المشاهد والمناظر، وإنما كنت أعود من تجوالي اليومي بحصيلة مادية من المشتريات، من بينها عددٌ من اللوحات المطبوعة لبعض المشاهد المتخيّلة منْ واقعة كربلاء التاريخية، وبعض الرسوم المأخوذة من القصص القرآني، أتذكر من بينها لوحةً للنبي إبراهيم (ع) وهو يهم بذبح ابنه إسماعيل (ع) وفاءً لنذره، وحولها كُتبت الآية القرآنية التي تتحدّث عن قصة فدائه بكبش عظيم.

إلى ذلك، كنت قبل سفري قد أوصتني جارتنا معلمة القرآن، بشراء بعض كتب الأشعار والمراثي الدينية باللغة الدارجة، والتي تجد لها سوقاً رائجة في تلك المدينة المقدسة. فكنت مهتماً بجمع هذه الكتب، سواءً من خلال المكتبات أو الأكشاك الصغيرة، أو تلك المعروضة للبيع على الأرصفة.

إلى جانب ذلك، لفت نظري بيع قطع صغيرة من الرصاص المستخدم في اللحام، وبأسعارٍ زهيدة، فاشتريت عدداً منها، إذ قدّرت أنني قد احتاج إليها في تصليح دراجتي الهوائية، أو تحتاجها والدتي في تصليح الثقوب بالوابور المستخدم في الطبخ آنذاك على نطاق واسع، قبل أن تدخل الأفران الحديثة واسطوانات الغاز نهاية السبعينات.

كل ذلك كانت حاجات ومشتريات عملية، أما هدايا السفر، فقد اشتريت لأختي عروسة، ولأخواني الصغار بعض الألعاب الصغيرة، والأهم أني اقتنيت بعض الشموع، أعجبتني لكبر حجمها، ولكنها كانت سبباً في إسالة دمي وجرح ركبتي جرحاً بقي أثره حتى الآن.

ما حدث هو أني بعد شرائها، رجعت مسرعاً إلى الغرفة، وكنت أفكّر بتقطيعها إلى شموع أصغر، لأوزّعها على إخوتي. وفيما كنت منهمكاً بتقطيعها في نشوة بالغة، وقد وضعتها على ركبتي اليسرى، لم أنتبه إلى أن الموس قطع الشمعة السميكةً، وقطع الثوب ووصل إلى الركبة وأخذ طريقه ليشق جلدي ويسيل دمي، دون أن أشعر إلاّ بعد فوات الأوان.

هناك آدابٌ دينية عامةٌ لزيارة المراقد المقدسة لأهل البيت النبوي الشريف، من أهمها قراءة الزيارة، يسبقها قراءة «الاستئذان» بالدخول، باعتبارها من المساجد حيث يذكر اسم الله كثيراً وتقام فيها فيها الصلوات الخمس. ولكون كثرة من الزائرين آنذاك ممن لا يجيدون القراءة، كانت توجد طبقة من «المزّورين» (نسبة للزيارة) يتولون قراءة الزيارة لهؤلاء، مقابل مبلغ مادي، وبالنسبة لي لم أحتج إلى خدمتهم، لاعتمادي على نفسي في القراءة.

الزيارة كانت في يوم العشرين من صفر، المعروفة بـ «الأربعين»، لمرور أربعين يوماً على استشهاد الإمام الحسين (ع). ويشهد هذا الموسم إقبالاً كبيراً على الزيارة، من داخل العراق وخارجه. وصادف أن كنت في أحد الأيام أقرأ الاستئذان للدخولِ مع والدي، فإذا بموجة من المعزّين يدخلون مهرولين إلى الضريح، وكان يقف قريباً منا رجلٌ عجوزٌ مع زوجتِه، كان لباسهما غريباً! فهي لم تكن تلبس العباءة السوداء كغيرها، وإنما تضع حجاباً من نوع آخر على رأسها. وهو كان يرتدي القميص والبانطلون، مع الكوفية والعقال، ولمّا سألَت عنه والدي قال إنهما من لبنان.

النجف الأشرف

المحطة التالية كانت النجف الأشرف، عاصمة مدرسة الفقه الإسلامي الشيعي وأقدم جامعة دينية ومدينة الحوزات العلمية العريقة؛ وباب علوم الأئمة من أهل البيت النبوي الشريف؛ ومرقد الإمام علي (ع)؛ ومهد الحركات العلمية والأدبية والجهادية.

عادة ما يحط الزوار رحالهم في كربلاء لفترة أطول، فإذا نزلوها عشرة أيام مثلاً، فإنهم ينزلون النجف الأشرف خمسة أيامٍ، والكاظمية يومين، أما سامراء فيقضون في زيارتها عادة نهار يوم واحد دون مبيت. وهكذا نزلنا النجف الأشرف لأيام قلائل.

كنا استأجرنا غرفةً بالطابق الأول في أحد البيوت. وكنا نمر في طريقنا إلى الحرم على السوق بما فيه من حوانيت ودكاكين متواضعة، وأزقة ضيقة متداخلة.

كانت العادة أن يكون لدي مفتاحٌ للغرفة في حال عدت إليها في غير الأوقات المتفق عليها. وفي عصر أحد الأيام طرقت الباب ودخلت المنزل، وصعقني ما شاهدت. كان فناء المنزل المربع مزدحماً بالرجال والنساء، وقد اصطفوا في حلقة دائرية وأخذت تتعالى أصواتهم بالنياحة والبكاء. كان المنظر مخيفاً، وسرعان ما تملّكتني حالةٌ من الرعب فولّيت هارباً من المنزل.

لم أكن أعلم ما يجري، ولم أحاول الرجوع إلى المنزل إلا في الليل، بعد أن تسللت بحذرٍ شديد، بعدما اطمأننت من انتهاء الحفلة المرعبة. لما التقيت والدي قصصت عليه ما حدثٌ فطمأنني بأننا نسكن في منزل واحد من الأكراد، وقد توفي أحد أقاربه، فجاء أهله من مناطق أخرى ليقيموا حسب تقاليدهم مراسم العزاء التي أرعبتني!

من يزور النجف، سيزور الكوفة أيضاً، فهي أصل القصة وفصلها، فالامام علي (ع) لما اضطر إلى نقل عاصمته من الحجاز إلى العراق لمواجهة التمرد على الخلافة الإسلامية، اختار هذه المدينة التي تشكّلت حديثاً، ونزل في بيت أخته أم هاني (ع)، بعدما رفض السكن في قصر الإمارة، الذي أسماه «قصر الخبال». هذا البيت التاريخي تجده الآن قائماً أمامك، إلى جانب أطلال قصر الإمارة، ومسجد الكوفة

التاريخي، فهذه البقعة من الأرض شهدت عدداً من أسخن الحوادث التاريخية في العصر الإسلامي الأول.

عندما كنت تدخل «بيت الإمام» تشعر بأن عجلة الزمان عادت بك إلى القرن الهجري الأول. هناك الدكة التي غُسّل عليها الامام بعد استشهاده، وعلى طرفها الدكة التي كان يجلس عليها الحسنان لقراءة القرآن، وهناك البئر القديمة التي كانوا يخرجون منها الماء. هذا البيت الأثري التاريخي الذي صمد على أنواء الزمان أربعة عشر قرناً، تعرّض للعبث على يد الحكم السابق، في مطلع الألفية الجديدة، إذ أعادوا بناءه باستخدام مواد بناء حديثة أفرغته من الروحانية والجلال القديم.

إلى جانبه، هناك مسجد الكوفة، حيث يوجد عددٌ من المقامات التي يحرص الزائرون على الصلاة فيها، لانتسابها إلى عدد من الأنبياء والشهداء الأوائل. وبالنسبة لصبيٍّ في الحادية عشرة، كانت الصلاة في هذا العدد الكبير من المقامات مرهقاً، وهو ما اعترف به لوالده... فظلّ يذكّره به بعد سنوات وسنوات.

على الزائر أن يزور الكاظمية أيضاً، وهي إحدى ضواحي بغداد، التي سيصادفك فيها منظرٌ لن تنساه، حين يطلب سائق الباص من الركاب النزول وعبور الجسر الخشبي المعلق إلى الضفة الأخرى من النهر، لتتمكن الحافلة من العبور بعد أن تتخفّف من الركاب! وكان السكن ليومين في أحد فنادق الكاظمية، ومن أجمل ما فيها حين تغادر الحرم بعد صلاة الفجر، وقد أوشكت الشمس على الشروق، فتجد الباعة يفترشون الأرض عارضين بضائعهم، من شايّ وحليب طازج وخبز ساخن و«قيمر» عراقي لذيذ، تأكله مع المربّى أو العسل فيكون ألذ.

أخيراً... ستكون هناك زيارةٌ عابرةٌ إلى سامراء تنطلق من موقف الباصات، وبعد مراسم الزيارة، ينطلق الباص إلى منطقة صحراوية، حيث توجد أطلالٌ وجدرانٌ لبعض القصور العباسية، وإلى جانبها مئذنة «الملوية» الشهيرة، ذات الشكل الحلزوني المميّز، والتي بناها المتوكل وكان يصعدها بفرسه. ولحسن الحظ أن كان معنا أحد المصوّرين فالتقط صورةً ملونةً لي مع الوالد على العتبات السفلى للمئذنة مازلت احتفظ بها، ولم أجرؤ على صعودها خوفاً من السقوط.

العودة من العراق

من حسن الحظ أن العودة كانت براً عبر الكويت. وكان وصولنا ظهراً، فصلينا بأحد مساجد العاصمة، ثم اتجهنا إلى أحد المطاعم لتناول الغداء، وعلى تلك الطاولة شاهدت لأول مرة في حياتي الخبز اللبناني الذي لم ينتشر في البحرين بعد. وقد كان مثيراً لي في تلك السن، أنك عندما تشق طرفه فإنه ينفتح لك مثل الكيس المجوّف.

قبيل المغادرة، اشترى الوالد زجاجاً أمامياً ملوّناً لسيارته، لا أدري هل لعدم وجوده في سوق البحرين أم لوجود فارق كبير في السعر، ولكن عند ركوبنا سيارة الأجرة، وبسبب إهمال السائق في إدخالها بعناية في الصندوق، تعرّض طرفها للكسر دون أن تتهشّم. وفي الطريق البري إلى السعودية، نزل مرافقونا من ركّاب السيارة لأداء صلاة العصر في أرض صغيرة ترابية، وأثار انتباهي يومها أنهم صلّوا دون وضوء، ودون أن يخلعوا أحذيتهم أو نعالهم.

حين وصلنا الدمام مساءً، نزل الوالد بأحد الفنادق لنبيت الليلة هناك. وقبل أن نأوي للنوم، نزل معي إلى السوق لتناول العشاء في أحد المقاهي الشعبية، وهناك شاهدت لأول مرة نوعاً آخر من أدوات التدخين، مختلفاً عن «الكدو»، المألوف لدينا في البحرين، فهو يوضع على الأرض، ويمتد منه خرطومٌ طويلٌ مرنٌ، ويمكن للمدخن أن يمارس هوايته وهو جالس على كرسيه، وهو أكثر حرية في الحركة من مدخن «الكدو». هذه «الشيشة»، ستقتحم مقاهي البحرين بعد ربع قرن من الآن، وستقتحم الثقافة الشعبية وتصبح جزءًا من مفردات الحياة الاستهلاكية الجديدة، بما تقدّمه من شيشة بالمعسّل أو التفاح!

في الصباح، ركبنا سيارة أجرة إلى ميناء الخبر، حيث كانت تنتظر السفن المتجهة إلى البحرين. الرحلة ربما استغرقت أربع أو خمس ساعات، لكنها كانت كافيةً لإلهاب خيالي بجمال البحر وروعته. فخلال هذه الرحلة، شاهدت أعماق البحر المختلفة في المسافة الفاصلة بين السعودية والبحرين، وكنت أجلس على حافة السفينة منتشياً وأنا أشاهد أسراب الأسماك التي تبدو واضحةً تحت سطح الماء، وأتمعن في عمق البحر الذي سحرني بجماله وروعته، وما فيه من آيات الهيبة والجلال. وسيظل منظر البحر يأسرني، إذ يدغدغني شعورٌ جميلٌ كلما وقفت على الساحل أتأمله،

ويلازمني لاحقاً كلما أجريت تحقيقات صحافية عن البحر والجزر والصيادين.

وأنا أعيد التقييم وأقف على هذا المشاهد المترامية من الذكريات، أرى أن الرحلة كانت زاداً معرفياً ثميناً، أضافت لي مخزوناً وافراً من المعلومات والمشاهدات والصور الرائعة التي ظلت مختزنة في الذاكرة حتى الآن. وكنت سأكون أقل سعادةً لو فاتتني هذه التجربة. لقد كانت بداية عهدي بالسفر وأنا في سنٍّ مبكرة، وفتحت عيني على ما في السفر من فوائد جمة، ومتعة لا تضاهى، ولا تعدلها أية شهادات أو علامات... خصوصاً أنني جربت خلالها وسائل السفر الثلاث: جواً وبحراً وبحراً.

النادي والغرام الرياضي

الفريق الأول لنادي المنارتين (الاتحاد حالياً) على استاد المحرق (١٩٧٤)

صور خاصة التقطها المؤلف في استاد مدينة عيسى بعد زراعته في منتصف السبعينات

كانت علاقتي بالنادي كعلاقة أيٍّ من أعضاء فرق الأشبال، حضور المباريات وتشجيع الفريق، والفرح إذا فاز، والحزن الشديد إذا انهزم. وفي إحدى الدورات، تم تنظيم المباريات على أستاد المحرق، كنت من بين الصغار المحظوظين الذين عُيّنوا لجلب الكرة عندما تخرج من الملعب. كان الجو حاراً، وكنا نجلس على كراس صغيرة تحت أشعة الشمس طوال ساعتي المباراة، وربما لا يحالفنا الحظّ بجلبٍ أكثر من كرتين أو ثلاث كرات طوال فترة اللعب، ولكننا كنا نشعر بفخر عظيم على أقراننا الذين حُرموا من هذا الامتياز. فنحن ننزل إلى الملعب برفقة اللاعبين، ونرافقهم حين يدخلون إلى غرفة الاستراحة بين الشوطين، ونشاهد المدرب يوجّههم، ونسمع ما يتبادلونه من أحاديث، ونحظى فوق ذلك بشرب الماء البارد.

في إحدى السنوات فاز الفريق بكأس دورة أندية المنطقة الوسطى الصغيرة، فقاد أحد رجالات القرية مسيرةً صدحت فيها أهازيج النصر، وانطلقت من عند عين أبوزيدان وطافت الشارع الرئيسي بالبلاد القديم. وفي دورة أخرى مُني فريقنا بهزيمة في المباراة النهائية على الكأس، فأطفئت الأنوار في الناديً تلك الليلة، وتجمّع عددٌ قليلٌ من أخلص المشجّعين، كنت من بينهم، في غرفة واحدةٍ، نتبادل الكلمات التي تواسينا وتخفّف عنا وطأة الهزيمة ومشاعرها المرّة.

مع بواكير الشباب، ومع انتخاب إدارة جديدة للنادي، كان من ضمنها اثنان من الجامعيين المتخرجين حديثاً، تملؤهم الطموحات الكبيرة. أحدهم نظّم ورشةً للتدريب على التصوير وتحميض الأفلام. كنت راغباً بقوةٍ في تعلّم هذه التقنية التي تعزّز هوايتي، ولكن لم تستمر الورشة كما كان مخططاً لها، رغم وجود المواد الكيماوية وتجهيز قسمٍ من غرفة اللجنة الثقافية بمقصورةٍ خشبية مظلمة لذلك.

كان التصوير هوايةً وولعاً عندي، منذ اقتنيت أول مصورة في حياتي، ربما لم يكن سعرها يتجاوز حينها ديناراً ونصف الدينار، لكني كنت أحرص على شراء الأفلام، وكلّما اكتملت صوره هرولت به إلى الاستوديو في المنامة لسرعة تظهيره. كانت الصور حينها بالأبيض والأسود، وبعد سنوات دخلت الألوان، وكان يستغرق تظهير الأفلام أسبوعاً كاملاً، وكان عليك أن تنتظرً حتى تحترق أعصابك ويمضي ذلك الأسبوع الثقيل حتى تذهب لترى صورك الملوّنة في المحل الوحيد (جنرال ستورز) في شارع باب البحرين الذي يمتلك أحدث الآلات. مع السنوات انخفضت فترة الانتظار إلى

ثلاثة أيام، وأخذت تتناقص حتى أخذت محلات الاستوديو تتباهى الآن بساعة انتظار واحدة فقط!

خلال هذه السنوات دخلت تقنياتٌ أخرى، من بينها التصوير الفوري الذي كان سيئاً للغاية، فعندما يدخل الشخص تلك الكابينة ويسدل عليه الستار، تبدأ الأنوار المشعة تنطلق في وجهه، فيظهر الشخص الأبيض في الصورة أسمر اللون، والأسمر يظهر أسود البشرة، والأسود يظهر متفحّماً كأنه خارجٌ من التنور. وربما هذا ما أسقط هذه التجربة من العيون وأخرجها من السوق.

التجربة الأخرى كانت مع الكاميرا الفورية (البلورويد)، التي أخذت نصيبها الكبير من الدعاية والإعلام، ولكن تقنيتها لم تكن عملية، فلم تستمر وتثبت أقدامها في السوق، رغم اقتناء الكثيرين لها على عادة الناس في اقتناء كل جديد. فإذا كانت الصورة الملونة تجهز في ظرف دقيقة، فإن ورقها السميك لم يكن يلائم الألبومات، وهكذا اختفت من الأسواق، وأصبحت ذكرى عابرة، لا تجدها إلا في الأماكن النائية والاستثنائية، كما يحدث مثلاً مع الحجّاج والمعتمرين، خصوصاً فوق جبل حراء أو عرفات أو المشاعر، حيث يفضل البعض الاحتفاظ بلقطات تاريخيةٍ من هناك، أو يلتقط صورةً له داخل هودج مزركش على ظهر أحد الجمالٍ.

إلى جانب كرة القدم، كان هناك اهتمامٌ بكرة تنس الطاولة، التي أولعت بها كثيراً، وتعلقت بممارستها كل ليلة حتى وصلت إلى المباراة النهائية في إحدى الدورات الداخلية التي تُنظّم في الصيف، لكنّي هُزمت فيها ما أورثني الكثير من الحزن والألم لفترةٍ طويلة.

على أن النادي في منتصف السبعينيات، لم يكن رياضةً كله، إذ كان للثقافة فيه نصيبٌ، فإلى جانب الألعاب الشعبية آنذاك، مثل الكيرم والشطرنج والدومنة والدامة، كانت هناك مسرحياتٌ هادفةٌ تُعرض وإن كان على فترات متباعدة. كما تنظم مسابقاتٌ ثقافيةٌ بين فرقٍ يتم تشكيلها من أعضاء النادي، وفي إحدى المسابقات شاركت مع أحد هذه الفرق، وفزنا بالمركز الأول، وحصلت على كتاب «البخلاء» للجاحظ. هذا الكتاب الذي لا يتجاوز ثمنه ديناراً واحداً، ظللت أعتز به كجائزة ثمينة تُشعرني بالفخر. فالجائزة ليست في قيمتها المادية، بل بما تحمله من شحنة إيجابية مليئة بالرمز، تحمل لنا الكثير من الثقة بالنفس وتقدير الذات والاعتراف بالانجاز.

في العام ١٩٧٧ أو قبله بعام، كان تلفزيون البحرين يبثّ برنامجاً مشوّقاً للأطفال، وكنت على أبواب التخرج من المرحلة الثانوية، ولكن يصادف أحياناً أن نجتمع مساء يوم الجمعة أمام البرنامج، الذي يختتم بأسئلة مسابقة الأسبوع، وكنت كأخ أكبر أساعد إخوتي في الإجابة عليها وإرسالها عبر البريد. وكم كانت فرحتنا غامرةً حين فاز أحدهم بالجائزة وأذيع اسمه على الهواء. ولأني لم أكن أملك سيارة ولا رخصة سياقة من الأساس، ذهب والدي بسيارته لتسلمها من مبنى التلفزيون، بعد أن أبرز لهم رخصة سياقته كهوية إثبات.

كانت الجائزة عبارةً عن جهاز عرض (بروجكتر) صغير، مع شريطين صغيرين لأفلام كارتونية عن توم وجيري، ظلّ يعرضه أخي الأوسط على أصحابه لعدة أسابيع دون أن يصيبهم الملل. وكان يجمعهم في الغرفة الرئيسية، ويغلق الباب، ويطفئ النور حتى تصبح مظلمة تماماً كقاعة السينما، لتسقط الصورة على قطعةٍ من القماش الأبيض، علقها سلفاً على الجدار.

بعد أشهر، وفي أثناء عودتي من السوق في سيارة «بيك أب» للنقل العام، جلس إلى جواري ولدٌ يصغرني سناً بقليل، وكان قد اشترى جهاز بروجكتر من نفس النوع، فسألته عن ثمنه فقال إنه بأحد عشر ديناراً، فالجائزة ليست في قيمتها، بل فيما تدخله على نفوسنا من فرحٍ وشعورٍ بالتفوق ولذة النجاح.

مكتبة دافئة

في هذه المكتبة، كنت أقضي وقتاً طويلاً في أغلب الليالي، فقد كانت توفر بعض الصحف، والكثير من المجلات المحلية والخليجية والعربية، رياضية وثقافية وفكرية وسياسية، من «النهضة» الكويتية، و «الدوحة» القطرية، و «روز اليوسف» المصرية، و «المستقبل» و «الوطن العربي» و «الحوادث». الصحف الوحيدة التي لم أكن أتقبّلها بفطرتي على الإطلاق، هي الصحف والكتب الصادرة من وزارة الإعلام العراقية، ربما لما فيها من دعاية حزبية مباشرة، مع قلة من المجلات والدوريات العراقية الرزينة التي لم تشوّهها الأهواءُ الحزبية آنذاك. فكنت أقرأ مجلة «الاذاعة والتلفزيون»، و «الثقافة»، و «ألفباء»، وأنفر من صحف الثورة والبعث.

ولما كان المزاج الطاغي رياضياً في تلك الفترة، فقد كنت من أشد المتحمسين للرياضة وأحداثها. فحين أغلق أستاد المدينة الرياضي تمهيداً لزرعه بالعشب، ونقلت المباريات إلى أستاد المحرق، كنت من الحريصين على حضور كثير من المباريات، وما يعنيه ذلك من مشقة في المواصلات، فكان عليك أن تركب النقل العام من الخميس إلى المنامة، وتستقل باصاً آخر إلى محطة المحرق، ومن هناك إما أن تركب باصاً ثالثاً ليوصلك إلى الاستاذ، أو أن تقطع مسافة ثلاثة كيلومترات مشياً على الأقدام، مع مئات المشاة المتحمسين القادمين من الجزيرة الأم (البحرين) أو سترة... وهو ما يحدث غالباً.

في أستاد المحرق، كما في أستاد المدينة بعد زراعته، كنت أحرص على التقاط صور خاصة بي، فكنت أحجز تذكرة لدخول المقصورة الرئيسية، وهو ما يتيح لي النزول إلى الملعب مع نزول الفريقين، والتمتع بفرصة التقاط صور لنجوم الكرة بكاميرتي الخاصة، كما يمنحني فرصةً ثمينةً للمباهاة والفخر على الآخرين.

صاحب الرسالة الخامسة

في أحد أيام الصيف، رتّب أحد أعضاء النادي زيارة للصحافي المصري علي المأذون، الذي اشتهر بأسلوبه الصحافي المميز حين التحق بمجلة «صدى الأسبوع»، فزاد من إقبال الجمهور عليها ورفع نسبة مبيعاتها.

كنا جالسين في المكتبة، وهي غرفةٌ صغيرةٌ تتوسطها طاولةٌ نُشرت عليها الصحف والمجلات، وعلى اثنين من جدرانها رفوفٌ من الكتب. دار الحديث مع نخبةٍ من رجال القرية، وكوني أصغرهم سناً، تركني الرجل إلى نهاية اللقاء ليختمه بدردشة سريعة معي، فبعد أن سجّل اسمي وعمري، سألني: ما هي المجلة المفضلة لديك؟ فأجبتً ببراءة وصدق: مجلة «الصقر»! وهي مجلةٌ رياضيةٌ قطريةٌ كان لها حضورها الطاغي بين جمهور الرياضيين آنذاك. فوجئت به وقد اكفهر وجهه، فقطع الحديث ولملم أوراقه ليخرج. لم أفهم السر في هذا التصرف، وكان عليّ أن أعمل بالصحافة بعد عشرين عاماً لأدرك مدى الحساسية المفرطة لدى الصحافيين تجاه منافسيهم من زملاء ومؤسسات.

مع ذلك، ظللت أترقب صدور العدد، خصوصاً انه طلب صورنا فأسرعت بإرسال صورتي إليه عبر الوسيط الذي رتّب الزيارة. مرّت ثلاثة أسابيع، ولما اشتريت العدد الجديد وعلى غلافه عنوان: «رسائل عاجلة من الخميس»، أسرعت إلى تصفّحه بحثاً عن التفاصيل. الصدمة كانت قوية جداً، والاحباط كان شديداً. فصورتي المنشورة كُتب تحتها اسم شاب آخر، وكلامي رغم انه لم يتجاوز الخمس كلمات، إلا أن صدر الصحافي الشهير لمْ يتسع لنشره، والأدهى انه كتب رسالة موجهة إليّ شخصياً ذيّل بها تحقيقه، مضمونها كالتالي: «إلى صاحب الرسالة الخامسة... دع المجلات الأخرى التي تفضّلها تعمل لكم تحقيقات مثلما عملنا». كانت الصدمة كبيرة، وكان عليّ أن أهضم الدرس مبكراً، فلم أكن أتخيّل أن الغيرة بين المجلات تتجاوز أحياناً الغيرة بين النساء!

رشوة

الولع بالكرة لم يقف عند هذا الحد، بل وصل إلى حد التعلق الجنوني بالمجلات الرياضية، فقبل صدور مجلة «الصقر» الرياضية الملونة من الدوحة، التي تميزت بألوانها وصورها وكتابها المحترفين، كانت هناك مجلة «الرياضي» الكويتية، التي كانت فريدةً من نوعها آنذاك. فكنا نحرص على الذهاب إلى المنامة يوم وصول المجلة، وانتظار ساعة إنزالها من السيارة في أكياس قماشية (خياش)، ونتدافع على أبواب المكتبة لشرائها قبل أن تنفد أعدادها لشدة الطلب عليها.

مع هذه المجلة، وقع لي حادثٌ طريفٌ، فقد كانت تُنشر في الصفحة قبل الأخيرة صور القراء، مع الاسم والعنوان والهواية والنادي واللاعب المفضل. فأحببت أن أنشر صورتي، فبعثت بها مع المعلومات المطلوبة. انتظرت أسبوعاً، ثم أسبوعين، ثم ثلاثة... حتى يئست من النشر، وبدأت تساورني الظنون حتى أخذت أفكر في الأسباب المحتملة لعدم نشرها! كنت متأكداً من كتابة العنوان واضحاً على الظرف، وكانت الصورة مرفقة مع كافة المعلومات، فما الذي جعلهم لا ينشرونها؟

وأخيراً... اهتديت إلى حل اللغز! فقد كانت على الغلاف الداخلي عبارة «السعر: ٥٠ فلساً»، فأقنعت نفسي أن المقصود هو سعر نشر الصورة. وهكذا بدأت رحلة البحث عن خمسين فلساً كويتياً. ذهبت إلى الصرّاف بشارع باب البحرين، وطلبت

منه قطعةً نقديةً من فئة الخمسين فلساً، ربما أنا الزبون الوحيد الذي طلب صرافةً بمثل هذا المبلغ الضئيل من النقد. لكن الصرّاف كان رفيقا بي، فبحث بين أدراجه حتى وجد تلك القطعة الذهبية! تسلمتها ثم دسستها في الظرف الذي يحتوي على صورة أخرى مع المعلومات، وخرجت مسرعاً إلى البريد في نهاية الشارع، ووقفت في الطّابور، حتى جاء دوري. لما سلمتها للموظف شكّ في الأمر، ففي الظرف قطعةٌ معدنيةٌ تتحرّك كالسمكة. طلب مني أن ألصقها بلاصق. كان علي أن أخرج من جديد بحثاً عن لاصق في إحدى البرادات. لصقتها وعدت من جديد إلى الطابور، وأخيراً حصلت على الطوابع، لصقتها على الظرف وألقيت به في الركن الخاص بالبريد الجوي لضمان سرعة وصولها، خرجت وأنا مطمئنٌ إلى إتمام المهمة على أفضل وجه. لقد وفّرت لهم كل ما يطلبون، ولا حجة لهم الآن في عدم النشر!

في اليوم التالي كان موعد وصول المجلة، وفوجئت أن الصورة الأولى نُشرت، كان تحليلي للأمور خاطئاً إذاً. لقد خسرت خمسين فلساً كويتياً... فضلاً عن طوابع البريد وقيمة اللاصق، وفوق ذلك مشقة الرحلة ذهاباً وإياباً، وفوق ذلك البلبلة والقلق وانشغال البال!

بعد أسبوعين، نشرت الصورة الجديدة أيضاً، ولا أدري كيف فكّر المحرر المسئول عن الصفحة، حين تسلّم تلك الرسالة فوجد فيها الخمسين فلساً مثبتةً باللاصق لكيلا تهرب! من المؤكد انه ظنها رشوةً مقدمةً من قارئٍ ساذجٍ يريد شراء ذمته، ليسرع في نشر صورته!

بعد المواظبة على مجلة «الرياضي»، وبعدها «الصقر»، أصدر المرحوم عبدالرحمن عاشير مجلة «الرياضة» في البحرين، فبدأنا نجري وراءها كل أسبوع. وفي كلّ عدد كنت أقوم بقطع صورة الغلاف، للنجم الذي يتم استضافته في لقاء العدد، وأقومَ بتلخيص حديثه وأكتبه بخطّي المرتّب في دفتر من الحجم الكبير (فئة المئتي ورقة) مازلت أحتفظ به حتى الآن تذكاراً على فترة الغرام الرياضي.

زلزالات

هذه القرية الآمنة الوادعة، التي كان أكبر همها الفوز بكأس البطولة في دوري المنطقة الوسطى، بين الفرق الرياضية من الدرجة الثالثة، كان القدر يخبئ لها

مفاجأتين غير سارتين، هزتين أرضيتين زلزلتا وضعها النفسي لسنوات. الزلزال الأول عملية قتل تعرض لها أحد رجال القرية على يد جاره، والثاني اغتيال المرحوم عبدالله المدني، مدرس «الدين» بمدرسة الخميس، من القرية المجاورة جدحفص. في أعقاب الحادثتين كان الوالد يشتري المجلات الأسبوعية ويعتمد عليّ في قراءتها لصعوبتها عليه، لانحصار معرفته بالقراءة في حدود تلاوة القرآن، فكانت فرصةً لتتبع القضيتين والإلمام بما كان ينشر عنها من تفاصيل.

كنت طالباً في المدرسة الابتدائية مطلع السبعينيات، وكانت الأمور تجري الهوينى في قريتي. الأيام متشابهة والليالي، وكنت أسمع أصحابي في المدرسة أو في الملعب، يتحدّثون كثيراً عن دكّان صغير، يقدّم صاحبه المشروبات الغازية والسندويشات اللذيذة والألعاب الشعبية. وكم كنت أتمنّى لو أذهب وأشاركهم هذه المغامرة، لولا النظام العائلي الذي لا يسمح بالسهر طويلاً في الخارج.

في ظهيرة أحد الأيام، كان عائداً من المدرسة، فأحس أن الوضع غير طبيعي كسائر الأيام. كانت هناك طائرةٌ مروحيةٌ تجوب سماء القرية، وكان هناك نوعٌ من الارتباك والخوف والوجل بين الناس، ولما وصل البيت تلقى النبأ الصاعق: هناك جريمة قتل في الديرة. وقليلاً قليلاً بدأت تتسرب قطعٌ أخرى من الخبر. تمّ القبض على المتهم، الذي دلّهم على موقع من البحر ألقي فيه بعض أدوات الجريمة. وفيما بعد تبيّن أنه قتل الضحية في الليل بينما كان عائداً من عمله وقد همّ بإقفال كراج سيارته، إذ لف عنقه بسلك موصل بعمود الكهرباء، ثم سحبه ليدفنه عند مدخل منزله من الداخل، ووضع مصطبةً خشبيةً فوق الحفرة.

الحادثة هزّت وجدان القرية الوادعة لبشاعتها، خصوصاً أن القاتل لم يكن غير صاحب الدكان الشعبي الصغير، وأخذ الجميع يراجعون ذاكرتهم، وكيف فاتهم فهم العبارة المشبوهة التي كتبها فوق جدار بيته: «احذروا عقربة سامة لادغة». وظلّت المجلات الأسبوعية آنذاك تتبارى في نشر المزيد من التفاصيل الجديدة، وكان أحد المانشيتات التي ظلّت محفورة في الذاكرة: «أخّاذ الأرواح (لقب عائلة القتيل) أخذوا روحه في بلاد القديم». والمحكمة التي استغرقت شهوراً، ظلّت محل متابعة شديدة من قبل الجمهور المصدوم، وكان الوالد طوال هذه الفترة يشتري «المواقف» أو «الأضواء» أو «صدى الاسبوع»، وأجلس بجانبه بعد الغداء لأقرأ له كل ما ينشر من تغطيات جديدة.

هذه التغطيات زادت من مبيعات المجلات، قبل وأثناء المحاكمة، التي انتهت بالحكم على الجاني بالإعدام.

بيت الجاني ظلّ مهجوراً لم يُسكن من بعده، ومع الأيام أخذت جدرانه تتساقط، حتى تحوّل إلى خربة. وظللتُ أخاف من النظر باتجاه البيت في السنوات الأولى كلما مررت عليه في مواكب العزاء الجماعية التي تطوف بالمنطقة، ولم تزل هذه الرهبة من القلب إلا بعد سنواتٍ طويلة، حتى أصبحت مجرد ذكرى للتفكر والاعتبار.

الزلزال المروّع الآخر كان اغتيال المرحوم عبدالله المدني، الذي كان يدرّس مادة «الدين» بمدرستي، ولم ألتق به شخصياً إلا أني أتذكّره وهو يقود سيارته عند خروجه منها. ولم يكن المدني مدرِّساً فحسب، وإنما كان أحد المثقفين من التيار الديني، ورئيس تحرير مجلة «المواقف» التي أثار خيالي عنوان غلافها عن «بومبيدو».

لم أكن أدرك ما يجري آنذاك في عالم السياسة الداخلية ولا الخارجية، وبعد سنوات وقعت في يدي بعض مقالات المدني التي كان ينتقد فيها قوى اليسار آنذاك، حين كان الصراع الفكري محتدماً بين القوى الدينية واليسارية في البحرين وعموم المنطقة العربية. الجانب المأساوي كان صارخاً في الواقعة، فالرجل كان يسكن في بيت متواضع جداً، عرضت المجلات صوراً لأطفاله الصغار أمام منزلهم البسيط، مع عرض تفصيلي لكيفية اختطافه من منزله إلى بر سار، حيث جرت تصفيته بطريقة بشعةٍ، ولم يفلح الاستعطاف والتوسل أو التذكير بمصير أطفاله لثني مختطفيه عن قتله، حسب ما كان يُنشر آنذاك من تفاصيل بالمجلات.

القضية ظلت مثار متابعة الجمهور لفترة طويلة، إذ كانت الصحافة تغطّي وقائع محاكمة المتهمين الستة، الذين حُكم على بعضهم بالإعدام. وستظلّ بعد عقدين من الزمان، مثار خلاف وتبادل اتهامات بين السلطة والقوى اليسارية، التي تنفي عن نفسها المسؤولية عن الجريمة، وتفسّرها بتصرفات شخصية لا ينبغي احتسابها على الحركة السياسية، وانها استُغلت لتصفية الحركة الوطنية وملاحقة رموزها، في ظلّ توجه عام لفرض قانون «أمن الدولة». وهكذا تظلّ الحقيقة المجرّدة ضائعةً، كما يحدث في كثير من قضايا التاريخ القديم والحديث... وإن تركت الكثير من الندوب في الوجدان العام، فضلاً عما تركته من شكوكٍ بين بعض القوى والتيارات في سياق الحراك السياسي لسنواتٍ طويلةٍ قادمة.

أفق جديد

مع بعض الأصدقاء أمام المأتم (١٩٧٨)

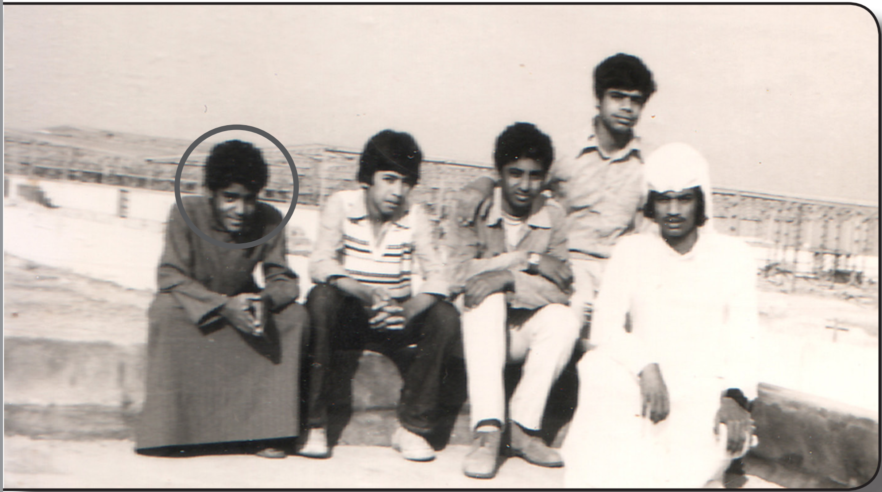

بعض الزملاء في مدرسة النعيم... ويبدو الهيكل الحديدي للسوق المركزي تحت الإنشاء (١٩٧٦)

من المسجد إلى المأتم

في مجتمع محافظ، يلعب المسجد دوراً في توريث الثقافة والمفاهيم الدينية، ويشاركه في هذه المهمة المأتم، ويضيف عليها مهمات أخرى، تدخل في صميم خدمة المجتمع.

ولأن المسجد كان هو الأصل، إلا أنه مع الأيام كانت هناك محاولات للاستقلال بمؤسسة المأتم الرديفة، حيث يتم أحياء مناسبات الموالد والوفيات، وحيث يمكن استقبال الأجانب في بعض الحالات كما في الأعراس، بينما يتعذّر ذلك في المساجد. فضلاً عن الحراك الاجتماعي بين القوى المحافظة والشابة، ما دفع إلى أن تشهد هذه المؤسسات تجارب مبكرة من الانتخابات.

في قريتنا، طُرحت فكرة إنشاء مأتم مطلع السبعينات، فانقسم الناس كما يحدث للمشاريع الجديدة في كل مكان بين مؤيد ومعارض، فواجهت الفكرة معارضة من بعض العوائل وتبنتها عوائل أخرى. وهكذا بدأ مشروع بناء «مأتم أنصار الحسين» على بعد مئتي متر من منزلنا. المأتم ليس مكاناً للنواح واللطم كما قد يبدو للبعيد، ولكنه تجربة اجتماعية فريدة، تعجّ بمظاهر الحياة والنشاط والتعارف والتكافل بين الطبقات.

لقد عاش جيلي تجربة بناء المأتم على يد الآباء، ورغم أن أكثرهم من محدودي الدخل، إلا أنهم نجحوا في تشييده بفضل تبرعاتهم وتكافلهم وتفانيهم، يحرّكهم في ذلك مفهومٌ دينيٌ بسيطٌ له طاقةٌ جبارةٌ على العطاء وشحذ الهمم: «خدمة الحسين».

الوصول إلى المأتم الكبير، يمر بمآتم أخرى مصغّرة للأطفال، فكثيراً ما يحدث أن يتجمّع الأطفال مطلع شهر محرم من كل عام، في مساجد صغيرة ليقيموا مأتمهم الخاص، يجمعون له تبرعاتهم، وينظّمون موَاكبهم، ويبرز من بينهم أصحاب الأصوات الجميلة ليقودوا حلقات العزاء الصغيرة التي تطوف داخل الأزقة الضيقة. ومن هذه المآتم الصغيرة يبرز أطفالٌ يمثلون مشاريع مستقبلية لخطيب أو رادود أو صاحب نزعة إدارية أو صاحب موهبة في الخط والتمثيل.

في مأتم الصغار، وجدتُ فرصةً لإظهار موهبتي في الخط، بعمل لافتات تحمل كلمات لشهداء كربلاء، واستمر ذلك معي في المأتم الكبير. والآن بعد أكثر من ثلاثين عاماً، عندما يهلّ شهر المحرم، أتلقى دعوات من الشباب لمشاركتهم في خطّ ولو لوحة واحدة، أكون سعيداً بإنجازها إن واتتني الظروف والوقت، وأكون منتشياً بروح الخدمة للحسين الشهيد.

في المناسبات الدينية، عادةً ما تتولى بعض الأسر تقديم وجبات غداء وعشاء «على حبّ الحسين»، وكان السائد أن تتولى الطبخ كبيرة نساء الأسرة تساعدها في ذلك بناتها ونساء وبنات الجيران. وفي الصباح يحملن على رؤوسهن القفاف المليئة بالأرز، وأخرى مليئة بالروبيان المجفّف أو اللحم، ويتجهن إلى العيون الطبيعية في المزارع لغسلها، ثم يشرعن في طبخ «المموّش» في قدورٍ كبيرة باستخدام الحطب وكرب النخيل، وعندما يجهز تقوم الفتيات والصبايا بتوزيع الأطباق على البيوت. وعند وقت الغداء أو العشاء، يجتمع الرجال في بيت المضيف، حيث تُمدّ لهم السفرة وتنثر فوقها حبات التمر، وتُحضر الصواني الكبيرة ليتحلق حولها خمسة أو ستة أشخاص. وبعد الفراغ منها، كانت مهمة غسل القدور والصحون تترك للنساء، ومع الوقت اخذ الشباب يدخلون على الخط، فيقومون بهذه المهمة التي كانت مختصة بالنساء. وفي حالتنا كنا نأخذ القدور وتوابعها إلى عين عذاري القريبة، حيث يسهل التغسيل على طرف الساب.

الضيافة كانت تتم بشكلٍ مبرمج ومعروف سلفاً لكل أبناء القرية، ومع أن الكلّ مدعو، إلا أن أحد الرجال كبار السِن كان غالباً ما يُكلّف بالمرور كلّ صباح على البيوت، ليذكّر أهلها بموعد ومكان الوجبة في ذلك اليوم والمساء.

في هذا المأتم، تعلمّنا أول الدروس الفقهية، من تيمم وغسل وأحكام صلاة. وفي هذا المأتم تلقّينا الدروس الكبرى في التاريخ، وحقائقه من وجهة نظر المظلومين الذين لم ينصفهم التاريخ. في هذا المأتم نمونا وشببنا عن الطوق، ولمّا حان موعد إجراء أول انتخابات إدارية، لم نتردّد ونحن في الصف الثاني الثانوي عن الترشّح لأول مجلس إدارةٍ منتخب. وهكذا وجدت نفسي مع اثنين من زملائي الشباب، أعضاء لا تنقصهم الحماسة ولا الثقة بالنفس للمشاركة في إدارة مأتم للكبار.

من النُعَيم إلى الحورة

لم أتخرج من مدرسة الخميس الابتدائية الإعدادية، إلا وقد تمكنت من إصدار «المجلات الحائطية»، فكنت أقوم بتخطيطها وتوفير بعض المعلومات المناسبة لها من خلال ما أقرأ من مجلات، وانتقلت بهذه العادة إلى مدرسة النُعَيم الثانوية، حتى دخلت حرم كلية الخليج الصناعية (جامعة البحرين لاحقاً). مثل هذا النشاط عادةً ما يكون مؤشراً أولياً على وجود بذرةٍ كامنةٍ واستعداد فطري للعمل الثقافي أو الصحافي في المستقبل.

في مدرسة النُعَيم، كان الفضاء أوسع، من حيث العلاقات الاجتماعية والانفتاح على عدد أوسع من أبناء المناطق المختلفة، من المنامة وضواحيها انتهاءً بالطلاب القادمينً من قرى شارع البديع. تلك المرحلة بالذات، شهدت ولادة أول صحيفة بحرينية يومية، وكان عليّ أن أوفّر قيمتها من المصروف اليومي المحدود، لأشتريً بعض أعدادها، خصوصاً لمتابعة المباريات الرياضية. وكان هناك عمودٌ لافتٌ على يمين الصفحة الأخيرة، ذو عنوان طويل وطريف: «طاش ما طاش، إذا أصابك الراش، فاعلم بأنك خاش باش»، وعندما أعاد قراءة هذه المقالات في كتاب صدر بعد عشرين عاماً، تأكّدت له نظرته بشأن ندرة الكتّاب الساخرين، ليس في البحرين فحسب، بل على مستوى الوطن العربي. هذه الظاهرة تعود في جانبٍ كبيرٍ منها إلى ظروف القهر السياسي، والتسلّط وحكم الأنظمة الديكتاتورية.

في هذه الفترة أيضاً، (٧٦-٧٥) كانت أعمال الإنشاءات قائمة على قدم وساق، لتشييد السوق المركزي، بعد دفن البحر شمال مدرسة النعيم، حيث أقيمً السوق. ومازال يحتفظ بصور التقطت أثناء الفسحة بالطابق الأول، وتظهر أعمدة الهيكل الحديدي للسوق كخلفيةٍ فنيةٍ رائعةٍ للصورة التي تجمع عدداً من الزملاء.

في النُعَيم، عشت التجربة الأولى لما يسمى مدرسة المشاغبين، وكان هناك أستاذٌ عربيٌ يدرّسنا الرياضيات، واشتهر بلقب «فيثاغورس» لأنه يكرّر اسمه ونظرياته أثناء الدروس. وفي أحد الأيام كان عابراً بفصلنا الدراسي ليدخل الفصل المجاور نهاية الفسحة، فأخذت الشقاوة بألباب الزملاء فاشتعل الصفّ بالتصفيق والضرب على المقاعد، مع الهتاف العالي باسم «فيثاغورس... فيثاغورس»، فما كان منه وقد

علم انه المقصود إلا أن أخذته الحميّة فاقتحم الفصل غاضباً، وأشار على ثلاثة من الطلاب ليسجّل أسماءهم، ولكوني أجلس في المقعد الأمامي صرت من كباش الفدًاء، دون أن يتحقّق من الجناة. وهكذا وجدت نفسي من بين ثلاثة موقوفين على باب المدير في اليوم التالي، ممنوعين من الدراسة، مع التهديد باستدعاء أولياء أمورنا، وهو الموقف الذي كنت أتمنّى أن تنطبق الأرض على السماء قبل أن أقف منكس الرأس أمام والدي في المدرسة، خصوصاً أنني لم أشارك فعلاً في الفوضى.

في مدرسة النعيم أيضاً، شهدت لأول مرة حادثة اعتداء طالب على مدرّس، وكان السبب التدافع اليومي على المقصف لشرًاء السندويشات والمرطبات، وبسبب الازدحام وعدم انضباطية بعض الطلاب، يتكرّر التدافع كل يوم، فتضطر الإدارة إلى تنصيب بعض المدرسين المزوّدين بالعصي، لتأديب من يشذّ عن النظام. في أحد الأيام، تلقى أحد الطلبة كبار السن والجسم ضربة أوجعته، فما كان منه وقد حمي رأسه إلا أن سحب العصا من يد المدرس، وأعاد له الضربة بمثلها، ثم طرحه أرضاً وأخذ يوجعه ضرباً. منظرٌ تمنيت أني لم أشاهده، لأن للمدرّس في نفسي منزلةً لم أتقبل أن يدنّسها أحدٌ قط، وبهذه الصورة المريعة، ومهما كانت الأسباب.

وللإنصاف... كان هناك بعض المدرسين الجفاة الغلاظ، الذين لم يكونوا يُحسنون غير الضرب والعقاب الجسدي، وهناك من اشتهر بكثرة استخدام عصاه عند مدخل المدرسة، ليعاجل أيّ طالب متأخر بالضرب على أصابعه أو ظهر يده، وهناك من كان يضرب رأس الطالب ًالصغيرً بالسبورة، لعدم حفظ بعض الآيات القرآنية أو جداول الضرب، مثل هذه الممارسات العنيفة تنفّر الطالب من المادة التي تتحوّل إلى عقدة مستعصية على الفهم، وهو ما حدث لي مع الرياضيات. كما انها تتراكم وتولّد ردوًد فعل كالتيً رأيناها أمام المقصف وعلى مرآى العشرات.

على أنه ليس كل المدرسين ظالمين، فمنهم مظلومون أيضاً، فعندما يدرّسك شيخٌ كبيرٌ مهاجرٌ من فلسطين، ويذيب عمره في تعليمك الانجليزية، فمن المعيب أن تقابل شخصاً أكبر من عمر أبيك، بحركات صبيانية مراهقة، كوضع الدبابيس فوق مقعده، أو تلويثه بالطباشير لتنطبع على معطًفه، وهيً حركاتٌ كانت تثير في نفسي الكثير من الاستياء والقرف، مهما بدا أصحابها ظرفاء وخفيفي دم في عيون طلبة آخرين.

هذه الحركات تولد ردود فعل غير متوقعة أحياناً لدى المدرسين، فقد كان يدرّسنا الانجليزية أيضاً مدرسٌ حديث التخرج، جميل الهيئة والأخلاق، هادئ الطباع، وكان

شبيهاً بالممثل المصري (محمد العربي) الذي كانٍ يُعرض له في تلك الفترة مسلسل «أبي فوق الشجرة» —على ما أظن- وشارك لاحقاً في دور الصحابي الجليل عمّار بن ياسر (رض) في فيلم «الرسالة». ولا أتذكر الآن ما قامٍ به اثنان من الزملاء لإغضابه، ولكن ما حدث كان مفاجئاً وسريعاً ودراماتيكياً جداً، إذ سحبهما إلى جهة السبورة، وانهال عليهما ضرباً موجعاً متتابعاً، واحداً بعد الآخر، فيما ران على الفصل صمت كصمت القبور.

القفزة الأخيرة كانت إلى مدرسة الحورة، لانتهاء الدراسة في النعيم عند عتبة الثاني الثانوي، وكان عليٍ طلاب النعيم التحوّل إلى الحورة لإكمالٍ الدراسة. وهي سنةٌ قصيرةٌ وحاسمةٌ دراسياً، ربما لذلك لم تخلّف في الذاكرة شيئاً من الذكريات. حتى هواية إصدار المجلات الحائطية التي استمرت معي في النعيم، أسدل الستار عليها هنا ليرفعٍ من جديد في المرحلة الجامعية، مع الالتحاق بكلية الخليج الصناعية... وتلك قصةٌ طويلةٌ تتلوها قصصٌ أخرى.

الكتاب يقدم سيرةً للمكان في عاصمة البحرين القديمة، في الفترة الممتدة بين منتصف الستينات حتى مطلع الثمانينات. ويقدّم لوحات من حياة الجيل الذي ترعرع مع بداية عهد الاستقلال، وشهد التحولات الكبرى. وكان هذا الجيل هو آخر جيلٍ شرب الماء البارد من «الحب»، وتعلم السباحة في «عين عذاري»، وكان يغمض عينيه قبل النوم على مناظر الشهب المتطايرة في السماء.

المؤلف

- قاسم حسين الموسوي
- عضو مجلس إدارة جمعية الصم البحرينية ورئيس اللجنة الإعلامية.
- عضو مجلس إدارة جمعية المرسم الحسيني للفنون الإسلامية.
- عضو مجلس أمناء الصندوق الخيري للبلاد القديم والزنج وعذاري والصالحية لثلاث دورات (2002–2007).
- عضو جمعية الصحفيين البحرينية، ورئيس تحرير مجلة "الأم والطفل" في الفترة ما بين مارس 1997 حتى يوليو 2002.
- محرر أول وكاتب صحافي بصحيفة "الوسط" منذ انطلاقتها في سبتمبر 2002.

Kassim.hussain@alwasatnews.com